

مطبوعات جمعية الآثار بالأسكندرية

دراسات أثرية وتاريخية

٣



١٩٦٩

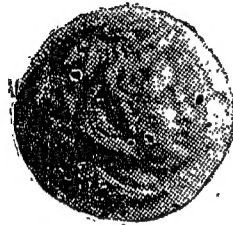
اهداءات ٢٠٠٠
ا.د. رشيد سالم الناضوري
أستاذ التاريخ القديم
جامعة الإسكندرية

يمكن الحصول على مطبوعات جمعية الآثار بالإسكندرية من مقرها
٦ شارع محمود مختار - الإسكندرية (تليفون ٢٠٦٥٠)

مطبوعات جمعية الآثار بالأسكندرية

دراسات أثرية وتاريخية

٣



المحتويات :

صفحة

١

١ - مبرنة مرسية

للدكتور السيد / عبد العزيز سالم

٣٦ ٢ - صورة عن وقعة الاسكندرية في عام ١٧٦٧هـ / ١٣٦٥ م

للدكتور بول كاله ، ترجمة وتعليق : درويش النخيل
واحمد قلدرى محمد اسعد

٩٥ ٣ - اللقاء بين التصوف الاسلامي والتجريد الفلسفي

لمحمود حلمي

١٩٦٩

مدينة مرسية

موطن الشيخ الزاهد العارف بالله القطب الأكبر

« أبو العباس المرسى »

(محاضرة أقيمت بجمعية الآثار بالاسكندرية في ١٣ مارس ١٩٦٧)

للككتور السيد عبد العزيز سالم

سيداتي سادتي :

عندما تفضل زميلي الدكتور دأرد عبسده دأرد بدعوى للحديث فى جمعيهكم الموقرة عن موضوع أختاره ، له صلة بحياة قطب الاسكندرية الأعظم ، وعلما الأكبر الذى أصبح اسمه يقترن باسمها ، سيدى أبى العباس المرسى ، وذلك بمناسبة احتفال مدينة الاسكندرية بذكرى مرور سبعائة عام على وفاته ، لم أتردد فى أن أسهم بحديث الليلة فى هذه الذكرى العزيرة ، وان كان ذلك قد جاء فى ختام هذه الاحتفالات . ولما كانت حياة شيخنا أبى العباس المرسى وآراؤه هى محور العدد الأعظم من الدراسات والبحوث التى صدرت حديثاً عنه ، فقد رأيت أن يكون موضوع حديثنا الليلة التعريف بمدينة مرسية الإسلامية ودراسة تاريخها الحافل بالأحداث مع الاهتمام بتصوير الفترة التى سبقت رحيل أسرة أبى العباس نهائياً من أرض مرسية ، واختياره لشجر الاسكندرية المحروس منزلاً وموطناً .

والشيخ الزاهد أبو العباس المرسى هو أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد الخزرجى الأنصارى المرسى ^(١) قطب زمانه ، وواس أصحاب الشيخ أبى الحسن الشاذلى ، ولد فى مدينة مرسية إحدى كبار مدن شرق الأندلس فى سنة ٦١٦ هـ ^(٢) (١٢١٩ م) ، وفى هذه المدينة التى كانت تعرف بمصر الأندلس قضى أبو العباس طفولته وصباه ، ثم قدر له أن يرحل عنها مع أسرته نهائياً فى سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م)

وقد بلغ من العمر أربعاً وعشرين سنة ، عندما اشتدت حركة الاسترداد المسيحي في إسبانيا ، وقبل أن يشهد سقوط مرسية في أيدي القشتاليين الذي تم بعد عام واحد من رحيله عنها .

وقد عبد أبو العباس والديه اللذين ماما غريبيين في البحر أمام ساحل بونة من إفريقية ، فلما وصل إلى مدينة تونس قدر له أن يلتقي بأب روصي كان له أعظم الأثر في حياته المستقبلية ، هو أستاذه القطب الصوفي الكبير الشيخ أبو الحسن الشاذلي ، الذي اصطفاه دون غيره حفيواً وتلميذاً ثم خليفة من بعده ، وقد لازمه أبو العباس ورافقه في رحلته إلى الإسكندرية في سنة ٦٤٢ هـ في عصر السلطان الملك الكامل محمد بن العادل بن أيوب . ولم يكن غريباً أن يختار الشيخان هذا الثغر الإسكندري دون غيره من مدن المغرب ومصر منزلاً ، فطالما اجتذبت الإسكندرية رجال العلم من أهل الأندلس بوجه خاص منذ أن اشتدت حركة الاسترداد المسيحي في إسبانيا الإسلامية بعد سقوط طليطلة في يد الفونسو ملك قشتالة في سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ، وإليها كان الاتقياء والمجاهدون المغاربة يقبلون وينزلون ، باعتبارها دار رباط (٣) ومركزاً رئيسياً للجهاد ، ولعل هؤلاء المهاجرين الأندلسيين والمغاربة كانوا يؤثرون استيطانها والنزول فيها إما لقاء الحياة العلمية في سماتها وأنشط الحركة الصوفية بوجه خاص ، أو لتأصل التقاليد الأندلسية المغربية في الإسكندرية منذ قيام الدولة الفاطمية ، أو لأنها كانت مرحلة متوسطة من مراحل الطريق إلى الحج بين المغرب والأندلس وبين الحجاز ، أو لوجود دار المغاربة ومدرسة أقيمت في عصر صلاح الدين للرابطة المغربية الذين لم يترددوا في المشاركة بأوفى نصيب في الجهاد ضد الصليبيين في الشام ومصر إلى جانب المصريين والشاهيين (٤) .

أكل هذه العوامل مجتمعة ، فلقد نزل الإسكندرية واحتوطنها عدد كبير من شيوخ الأندلس والمغرب نخص بالذكر منهم : العالم أبا الحجاج يوسف بن عبد العزيز بن نادر الميورقي ، وأبا عبد الله محمد بن مسلم بن محمد القرشي المازري الصقلي (٥) ، وأبا بكر محمد الطرطوشي المعروف بابن أبي رندة (٦) ، وعبد الرحمن ابن أبي بكر بن عتيق بن خلف الصقلي المعروف بابن الفحام ، وكان من شيوخ القراء

بالاسكندرية^(٧) ، وأبا القاسم بن مخلوف المغربي الاسكندري ، أحد كبار أئمة المالكية (ت ٥٢٣ هـ)^(٨) ، وأبا العباس أحمد بن عمر بن ابراهيم الانصارى القرطبي الفقيه المحدث (ت ٥٥٦ هـ)^(٩) ، وأبا عبد الله محمد بن ابراهيم بن الجرح القلساني نزيل الاسكندرية (ت ٦٥٦ هـ) وكان من صلحاء العلماء في الحديث^(١٠) ، والحسن بن خلف بن عبد الله بن بليمة القيرواني نزيل الاسكندرية (ت ٥١٤ هـ) وكان عالماً في القراءات^(١١) ، واليسع بن حزم الغافقي الأندلسي الجبلي نزيل الاسكندرية في عصر صلاح الدين (ت ٥٧٥ هـ)^(١٢) ، والقاسم بن خيرة بن خلف بن أحمد الشاطبي المقرئ (ت ٥٥٥ هـ)^(١٣) ، وأبا عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن زكريا المعافري البلسي المقرئ^(١٤) ، وأبا الحسن علي بن محمد بن يوسف بن عفيفي الحزرجي الساعدي الغرناطي^(١٥) ، وأبا عبد الله محمد بن يوسف بن سماعة الموصلي^(١٦) (ت ٥٥٥ هـ) ، ونختم هذه الأمثلة بالفقيه الزاهد نزيل الاسكندرية أبي عبد الله بن محمد بن سليمان المعافري الشاطبي (ت ٦٧٢ هـ)^(١٧) . وقد ترك أثنان من هؤلاء الوافدين اسميهما على حيين من أحياء الاسكندرية الحاضرة هما حي الطرطوشي نسبة إلى ضريح الطرطوشي المقام بالقرب من الباب الأخضر^(١٨) ، وحي الشاطبي نسبة إلى رباط سوار الذي كان يقع بظاهر الاسكندرية من الجهة الشمالية الشرقية حيث منطقة الشاطبي حالياً^(١٩) .

* * *

أما مدينة مرسية التي ينسب إليها شيخنا الكبير أبو العباس الموصلي ، موضوع حديث اللبلة ، والتي كانت حاضرة شرق الأندلس في العصر الاسلامي ، فهي مدينة إسلامية حديثة ، أي أقيمت في العصر الاسلامي ، أسسها الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط في ربيع الأول من سنة ٢١٦ هـ (٨٢١ م) لتقوم مقام مدينة إله Ello (أو إيه حسب ما سماها به العذري)^(٢٠) الحاضرة القديمة المذكورة تدمير ، التي أمر عبد الرحمن عامله جابر بن لبيد بتدميرها بسبب الفتنة التي قامت فيها بين القيسية والبنية والتي استمرت قائمة حتى سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨ م) . وكورة تدمير المذكورة إنما سميت كذلك نسبة إلى تدمير بن عبيدوش

القوطى Teodomiro b. Ergobado الذى كان يتولى إمارتها من قبيل ملك القوط (٢١) ، بخلاف ما فسره بعض الباحثين بأن عبد الرحمن الأوسط سماها تدمير باسم تدمير الشام (٢٢) ، إذ أن تدمير كان يطلق على إقليم مرسية عند الفتح الإسلامى الأندلس فى سنة ٩١ هـ ، بينما لم يطلق اسم مرسية على المدينة التى حلت محل إله إلا فى عهد عبد الرحمن الأوسط . وكانت كورة تدمير تضم فى زمن الفتح الإسلامى عدداً من المدن منها : أوريولة Orihuela ، وبلانة Baltana ، ولقنت Alicante ، ومولة Mula ، وبلانة Villena ، ولورقة Lorca ، وإله Ello (٢٣) .

وقصة فتح المسلمين لكورة تدمير فى ولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير بعد سنة ٩٤ هـ (٢٤) فيما روثه المصادر العربية ، قصة شيقة تتضمن من عناصر المفاجأة والنشويق ما جعلها أقرب إلى الرواية القصصية ، فلقد سار عبد العزيز بقواته إلى حصن أوريولة ، وهزم تدمير وأصحابه فى قرطاجنة ، فرضة أوريولة ، ووضع المسلمون فيه السيف ، ونجا تدمير مع رطل من أصحابه ونحسوا بأوريولة ، وكانت هذه المدينة يومئذ غاية فى الحصانة والمنعة ، وكان تدمير مجرباً بصيراً ذا هيبة ، فلما رأى قلة أصحابه ، أمر النساء فنشرن شعورهن وأمسكن القصب بأيديهن وظهرن على عشى السور فى زى القتال متشبهات بالرجال ، فكره المسلمون مراسلة لكثرة ما عاينوه على السور ، وآثروا أن يهادنوه ، ففاوضهم على خير ما اشتاء من شروط ، وعندما دخل المسلمون المدينة لم يلقوا فيها جيشاً للدفاع كما كانوا يعتقدون ، فزعموا على تسرعهم فى عقد الصلح ، ولعنهم نفذوا شروط الصلح التى وضعها تدمير (٢٥) .

وعندما اشتد الصراع فى الأندلس بين المصبيتين القيسية والبنية نتيجة للحروب الأهلية التى قامت بين البلدين فى الأندلس وجند الشام ومصر الوافدين إليها ، وأمر الخليفة الأهوى هشام بن عبد الملك بقولية أبى الخطار الحسام بن ضرار السكلى على الأندلس ليضع حداً لهذه الفتنة ، نظر أبو الخطار فى إبعاد جند الشام ومصر عن قرطبة ، وتوزيعهم على كور الأندلس ليقضى على عوامل الاضطراب ،

وراعى في هذا التوزيع تشابه الكور التي ينزلون فيها مع مواطنهم الأصلية ، فأنزل
جند دمشق بالبيرة للتشابه الكبير بين البيرة ودمشق ، وسمى البيرة دمشق ،
وأنزل جند الأردن بكورة رية ومالقه وسماها الأردن ، وجند فلسطين بفدونة
وسماها فلسطين ، وجند حمص بإشبيلية وسماها حمص ، وجند قنسرين بجبان وسماها
قنسرين (٢٦) . أما جند مصر فقد اختار لهم كورة تدمير ، فسميت تدمير منذ ذلك
الحين بمصر لكثرة شبهها بها ، ولأن لها أرضاً يسبح عليها نهر في وقت مخصوص
من السنة ، ثم ينضب عنها ، فيزرع كما تزرع أرض مصر ، (٢٧) ، ونهر تدمير
المعروف بالنهر الأبيض أو وادي شقورة فسمي الوادي الكبير بقرع قرب مصبه
إلى دلتا ذات شعبتين أو جدولين ، كذلك مصر على نهر مصر ، أحدهما يسقي قبلي
مصرية ، والثاني يسقي جوفها (٢٨) .

وأصبحت مصرية منذ تولى جابر بن مالك بن أبيد تخليطها وإنشاءها في زمن
الأمير عبد الرحمن الأوسط منزلاً للولاية ، وقاعدة لكورة تدمير ، وداراً ومقرراً
للقواد (٢٩) في ولاية كل من الأميرين عبد الرحمن الأوسط وابنه محمد ، فلما ضمت
السلطة المركزية بقرطبة في عهد الأمير عبد الله بن محمد ، واشتعلت نار الثورة
في سائر أنحاء الأندلس ، استقل ديسم بن اسحاق المولد بمصرية ولورقة وما يليهما
من كورة تدمير (٣٠) ، ولم تدخل مصرية في فلك الأماة بقرطبة إلا بعد أن أرسل
الأمير عبد الرحمن بن محمد الذي تلقب فيها بعد بالناصر لدين الله ، وزيره اسحاق بن
محمد القرشي على رأس جيش كثيف في سنة ٣٠٤ هـ ، فأنزعها من الثوار ، كما افتتح
حصن أوربولة قاعدة كورة تدمير وأمنع معاقلها وأقدمها (٣١) ، ثم استباح القرشي
أحوال أهل الكورة .

وازدهرت مصرية في عصر الخلافة ، واتسع عمرانها وأصبحت في عداد
الحواضر الأندلسية الكبرى ، وكانت لها فرشتان أو مرسيان يطلان على البحر :
أحدهما قرطاجنة الخلفاء وكان مرسى ترسو به السفن الكبيرة والصغيرة (٣٢) ،
والآخر مرسى لقنت الذي يجوز منه التجار إلى إفريقيا (٣٣) .

واتسعت مصرية ، وفاض عمرانها خارج أسوارها ، وأصبح لها ربض عامر

بالسكان تدور به الاسوار ، ويصل بالمدينة عن طريق قنطرة من السفن ، وكان لتوافر مياهها أثر كبير في كثرة بساطتها ، ووفرة قواكمها كالتين والكروم (٣٤) . وظلت مرسية في ازدهار مطرد حتى سقطت الدولة العاصرية ، وأصبحت الخلافة محل أطباع الطامعين من أمراء المروانية ، وتمزقت وحدة الأندلس وقامت دويلات الطوائف ، فاخص رؤساء الصقلية بشرق الأندلس ، فخدمت دافية وأعمالها لمجاهد العاصري ، وخدمت شاطبة لنبييل ، وبلنسية لصدوم ثم لمبارك ومظفر العاصريين ، ثم المنصور أبي الحسن عبد العزيز بن عبد الرحمن شنجول بن المنصور محمد بن أبي عامر ، وطرطوشة للقيب العاصري ، والمرية لخيران . أما مرسية فكانت من نصيب واصل (٣٥) ، ولكنها لم تقاوت أن أصبحت من نصيب خيران الفتي العاصري الذي كان يتولى حكم مدينة المرية منذ حجابة المنصور محمد بن أبي عامر (٣٦) . فالتخذ خيران المرية قاعدة لدوائمه ، ولم يلبث أن ضم اليه قلعة أوربولة في سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٤ م) (٣٧) ، ولم يمض عامان على ذلك حتى انتزع مرسية من صاحبها واصل الفتي ، ونازع بذلك الموفق أبي الحسن مجاهد الفتي العاصري صاحب دافية والجزائر الشرقية . وأدى اصطدام خيران بمجاهد العاصري وانتهزاه أمامه إلى أن يدهو بالامارة الحفيد من أحفاد المنصور بن أبي عامر هو أبو عامر محمد بن المظفر عبد الملك ، فتنازل خيران عن مرسية وأوربولة (٣٨) ، غير أن العلاقات بينهما لم تلبث أن تدهورت ، ففر خيران إلى المرية في ربيع الآخر سنة ٤١٢ هـ (١٠٢١ م) ، وتحرك من هناك إلى مرسية محارباً لمحمد بن المظفر ، فما زال به حتى أخرجه عنها في ربيع الأول سنة ٤١٣ هـ (٣٩) (١٠٢٢ م) . وهكذا خضعت مرسية لخيران ، الذي ظل يقوم بحكمها من المرية حتى توفي في جمادى الأولى سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨ م) ، خلفه على إمارتها عميد الدولة أبو القاسم الفتي زهير العاصري ، وأصبحت مرسية خاضعة لزهير بحكمها من فصة المرية . فلما قتل زهير في معركة قامت بينه وبين باديس بن حبوس الصنهاجي صاحب غرناطة ، بقرية الفنت الواقعة على بعد أربعة أميال من غرناطة في شوال سنة ٤٢٩ هـ (٤٠) (١٠٢٧ م) ، واصل نبأ موته بأهل مرسية ضبطوا مدينتهم ، وأسندوا الرئاسة فيها إلى أبي بكر أحمد بن اسحق بن طاهر القيسي ، الذي ينتسب إلى بعض من أشرف

الجيوات العربيه بمرسية رارفعها ، ويرتفع نسبه الى قيس عيلان (٤١) ، فاستقل بحكمها وإن كان في الظاهر يعان خضوعه للمنهصور عبد العزيز صاحب بالنسبية . وكان ابن طاهر محبوباً بين أهل مرسية ، محباً للثقافة ، مشجعاً للعلوم ، فلبس ثوبى في سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) خلفه على إمارتها ابنه أبو عبد الرحمن محمد بن احمد بن طاهر ، الذى خلع ولاده للملك بالنسبية العاصرى نهائياً ، مستغلا في ذلك الموقف الحرج الذى كانت نيجتازه هذه المملكة عند توليه إمارة مرسية (٤٢) ، واسكن أبا عبد الرحمن لم يكن يحمل حساب ملوك الطوائف الآخرين ، وعلى الأخص المعتمد بن عباد ملك لإشبيلية الطموح الذى حاول من قبل أن يستولى على مرسية مستعيناً في ذلك بريموندو بيرنجر الثانى صاحب برشلونة (٤٣) . وكان ابن طاهر من أهل العلم والأدب ، انتجهم الشعراء وقصده الأدياء ، وكان من قصوده الشاهر أبو بكر محمد بن عمار بن الحسين بن عمار المهرى (٤٤) في أيام خموله ، الذى سيمسى الى خاعه من سلطانه ، وكان ابن طاهر أميراً عادلاً في أحكامه ، فرضى أهل مرسية بحكمه ، وأجمعوا على محبته ، عدا فئة حسدته على ما ناله من محبة في قلوب رعيته ، نفاطبوا المعتمد بن عباد الايقاع به . وذكر ابن الأبار نقلاً عن ابن قاسم في تاريخه أن ابن عمار هو الذى زور للمعتمد أن أهل مرسية قد داخلوه وخاطبوه ، وأظهر لهم كتباً ذكر أنهم كتبوها إليه ، (٤٥) ، فوجه ابن عباد عسكرياً من لإشبيلية بقيادة ابن عمار ، لغزو مرسية ، فلما وصل ابن عمار الى قرطبة وكانت تابعة للمعتمد بن عباد ضم الى عسكريه خيالة قرطبة . ثم تقدم الى مرسية ، واجتاز في طريقه إليها على حصن يقال له « حصن بلج » Vilche ، وضم إليه عامل هذا الحصن واسمه عبد الرحمن بن رشيق وفوده على عسكريه ، ثم تمكن ابن عمار بمساعدة ابن رشيق من انتزاع حصن مولة من بنى طاهر وكان هذا الحصن من أهم حصون إمارة مرسية فنهه كانت متصلل المؤمن والافوات الى الحاضرة . وما إن وضع ابن عمار يده على مولة حتى ولى عليها ابن رشيق ، وترك معه جملة من الخيل وقفل عائداً الى لإشبيلية (٤٦) .

وما زال ابن رشيق يغادى مرسية ويروحها بالغارات ، وقد برح بها تكرر

الحصار ، وأمضها انقطاع المواد بانخزال مولة عنها (٤٧) ، ويدخل أهلها في عصيان ابن طاهر والخروج عايه ، ويمنهم في مقابل ذلك بالأمانى السكبار ، حتى لان قيادهم ، وما لوالا إلى الدخول في طاعة ابن عباد ، واتفق معهم على أن يفتحوا له أبواب مرسية عند قدومه إليهم من حصن مولة ، فلما وصل ابن رشيق إلى ظاهر مرسية قادماً من حصن مولة ، فتحت له أهل مرسية أبوابها فدخل ابن رشيق في عسكره وأنصاره ، ونم اعتقاله لابن طاهر ، فأخرج من داره إلى السجن وقيل اعتقاله في حصن منت أقوط (٤٨) (Monteagudo) وظل معتقلاً بهذا الحصن إلى أن ورد كتاب المعتمد بإطلاق سراحه فالحق بأبي بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية ، وقيل إن ابن طاهر نجح في الإفلات من معتقله بإعانة ابن عبد العزيز المذكور وسعيه لتخليصه من سجنه (٤٩) .

ثم قدم ابن عمار إلى مرسية موفداً من المعتمد بن عباد ليصبح أميراً عليها ، غير أنه طمع في الانزواء والانفصال عن إشبيلية ، وسوّل له نفسه أن يستقل بحكم مرسية ، فقدم بها مقعد الرؤساء ، واعتبر نفسه نداء لابن عباد ، واستخف بأهل مرسية ، واستعمل المعاصى حتى أبغضه الناس (٥٠) . وذكر ابن بسام أنه استعمل أراذل عبيده وخسائسهم على الحصون وأقطعهم الضياع ، واستغرق أئساف ولايته في الملهذات ، فانتز ابن رشيق فرصة انقطاعه إلى الشراب واللهو وأخذ يستبدل أولئك الأراذل ببني إخوته وأخسواته ، حتى إذا ما تم له ذلك ، أغرى الأجناس بطلب أرزاقهم من ابن عمار ، وأثار عليه الناس ، ثم انتز فرصة خروج ابن عمار فنفقه بمض شؤون مرسية وحصونها ، فوثب على مرسية الحاضرة ، واستولى عليها ، وامتنع بها ، ودعا فيها لابن عباد (٥١) . أما ابن عمار فقد لجأ إلى أذفونش بن فرولند (أى الفونسو السادس ملك قشتالة) (٥٢) ، وكان ابن رشيق قد استمال أذفونشى بإطاقه وهدايه ، وغيره على ابن عمار ، فأساء هذا استقباله (٥٣) ، وعندئذ ولّى ابن عمار وجهه نحو سرفسطة ، فالحق بالمقتدر بالله بن هود صاحبها (٤٣٨ - ٤٧٥ هـ) (٥٤) ثم وقع ابن عمار أخيراً في يد المعتمد فشكبه ، وقتله بيده (٥٥) .

وظل ابن رشيق يحكم مرسية باسم المعتمد ، ثم بدأ يتحرر تدريجياً من تبعيته له

منه أن تمكن المرابطون وجيوش الأندلس من الانتصار على جيوش الفونسو السادس في موقعة الزلاقة (٥٦)، وقد أخذ يقترب إلى المرابطين ، حتى يعتصد بهم عندما يعان خروجه على المعتمد ، وأحسن المعتمد بما يضمه ابن رشيق في نفسه فبادر بالاصصال بيوسف بن تاشفين ، وحثه على الجواز بجيوشه إلى الأندلس المرة الثانية لمحاصرة حصن لييط الذي كان الغشتاليون يشغون منه الغارات في أراضي المسلمين المجاورة لمرسية ، وعرض المعتمد على ابن تاشفين أن يحكم معه ما شاء من عمل في مرسية وغيرها (٥٧) ، فلما أقبلت جيوش المرابطين للمساهمة في حصار حصن لييط ، واجتمع معهما جيوش الطوائف ، استغل ملوك الطوائف هذه الفرصة ليشكوك كل منهم زميله ليوسف بن تاشفين ، وعهد ابن رشيق إلى بذل الاموال والهدايا إلى أمراء المرابطين وقوادهم وعلى الاخص إلى الأمير ميم بن أبي بكر ، فأعطى د ابن رشيق الامان ، وبولغ له في التأنيس ، حتى غره ذلك وانبسط له ، وتاه على ابن عباد ، وأظهر مصيئته والانتخاش منه ، قائما في ذلك بدعوة الأمير ومسندا إليه ، حتى أفضى ذلك به إلى أن أمر أن تكون الخطبة بمرسية على اسم أمير المسلمين (يقصد يوسف بن تاشفين) دون ابن عباد (٥٨) .

وأغاظ هذا التصرف ابن عباد وأثاره عليه ، ولكنه لم يرض بالامر الواقع ، أحمل على وصمه بتهمة التعاون مع النصارى ومساعدتهم ، تهيدا لاستصدار فتوى قهية بمنزله واعتقاله ، ويمبر الأمير عبد الله الزيرى عن ذلك في مذكراته بقوله : والمعتمد في هذا كله يرى من الامر ما يغيظه ويكرهه ، ويتقطع منه حسرات ، يحق له فلم يتم عن الفتية ، وأحكمها مع الفقهاء ، واحتج عليه بأحكام السنة ، وكان بن اصطنع حل ذلك ابن القليمي (٥٩) .

وكان ابن تاشفين يراقب الخلاف القائم بين المعتمد وابن رشيق عن كثب ، وكان بإمكانه أن ينصب نفسه حكما في هذا النزاع فيميل إلى ابن رشيق ويناصره على المعتمد ، ولكنه أثر بعد أعمال الفكر أن يستجيب لمطالب ابن عباد ، فيؤيده في شتيته مداراة له ، ولاحتياجه إليه فيما هو بسبيله ، فتمسك على ابن رشيق في الذي ظهر من الخلاف على صاحبه ، وقال له : ما كان يجب لك أن تقوم بدعوتي للقيام

على رئيسك ، فترقع بيني وبينه الشحنة . وقال في نفسه : لم يفعل ذلك ابن رشيق لإشارته إلى ولا محبة للجمي ، أكثر من اضطراب النار على صاحبه ، وإشغاله في عن نفسه ، ولا سباً أن مهونته للروم بلييط لم تخف على أحد ، يعتقد أن ببقائها يثبت في مرسية ، فكان أبداً يميزهم ويقويهم بما يعجزون عنه ، إبقاء لرحمهم ، وخوفاً من الداخلة عليه بفقدهم (٦٠) .

ولم ينتظر المعتمد حتى يتخذ ابن تاشفين قراره ، فبادر باستفتاء الفقهاء في أمر ابن رشيق ، فاجتمع هؤلاء في مجلس أفتوا فيه بخلافه ونسأله للمعتمد ، وأيد ابن تاشفين قرار الفقهاء ودعا إلى تثقيفه ونسأله إلى المعتمد ، الذي أمر باعتقاله في إشبيلية وتقليد الراضي بن المعتمد واليا على مرسية مكان ابن رشيق (٦١) .

ولكن لم تطل تبعية مرسية لدولة المعتمد فلما لبث ابن تاشفين أن انقلب على ملوك الطوائف ، فجاز إلى الأندلس للمرة الثالثة في سنة ٤٨٣ هـ ، وهو ينوي في هذه المرة القضاء على دويلات الطوائف ، وتوحيد كلمة الأندلس ، وتأليف جبهة مغربية أندلسية متحدة لمواجهة خطر النهرانية المتزايد . وبدأ يوسف بن تاشفين بتسكبة الأمير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة ، فمزله عن ملكه ، ونفاه إلى سبكناسة بأرض المغرب ، ثم أتبعه بأخيه تميم صاحب مالقة ، فنفاه إلى السوس . وفي العام التالي سير أربعة جيوش مرابطية إلى الأندلس لمنازلة ملوك الطوائف الآخرين ، ومحاصرتهم في قواعدهم ، وانتهى الأمر بإسقاط كل من المعتمد بن عباد ملك إشبيلية ، والمتوكل على الله بن الأنطس ملك بطليوس مرشترين وما يليها من إقليم أستراليادورا غرب الأندلس ، كبيري ملوك الطوائف ، فبنى المعتمد إلى اغتبات بأرض السوس في سنة ٤٨٤ هـ ، بينما قتل المتوكل وإبنائه أثناء توجههم أمري إلى إشبيلية في أخريات سنة ٤٨٨ هـ (٦٢) .

وكانت قوات القائد المرابطي الكبير محمد بن عائشة (٦٣) ، قد تمكنت من انتزاع مدينة مرسية ، فولى عليها ابن عائشة من قبله قائداً مرابطياً يقال له أبو عبد الله محمد بن الحجاج (٦٤) ، ولكن مرسية لم تلبث أن تعرضت في سنة ٤٨٤ هـ لغزوة

قام بها البرهانس (أو البارهانش) (٦٥)، بينما تعرضت شاطبة لحصار السيد القنبيطور el Cid el Campeador، والمرية لحصار القائد القشتالي غرسية خيرة، (٦٦)، وقام أحد أسافنة الفرجة ببناء حصن على ضفة البحر بالقرب من مرسية يقال له حصن سانشة أو شجنة (٦٧). وأدت هذه الأحداث إلى خروج ابن عائشة بقوات المرابطين من إشبيلية نحو مرسية، ودارت بينهم وبين القشتاليين موقعة هنيئة انتهت بهزيمة القشتاليين، وتمكن ابن عائشة من استرداد مدينة مرسية، فدخلها، وخلع صاحبها، ولعله نفس ابن رشيق الذي يغلب على الظن أنه أعيد إلى ولاية مرسية بعد أن أفرج عنه المرابطون عند دخولهم إشبيلية، فخرج من ثغافه (٦٨) خاصة وأن أهل مرسية كانوا قد امتنعوا عن الخضوع للرأصى بن المنعم، ولولايه عليهم القائد ذى الوزارتين أبي الحسن بن اليسع (٦٩)، الذى خلعه عن ولاية مدنيهم، وثقفوها، وجفوا كل من مضى إليهم، وامتثلت الحال على ذلك بعد وساطة كثيرة تسكرت بينهم (٧٠) .

وأيا ما كان الأمر، فقد آلت مرسية إلى المرابطين الذين تمهدت لهم بلاد المغرب والاندلس، واتخذها الأمير ابن عائشة فيما يظهر قاعدة لآمارته في شرق الاندلس (٧١) ومنها خرج ابن عائشة في ٤٩٠ هـ واشترك بقواته مع محمد بن الحاج في إيقاع الهزيمة بجيش القشتاليين في كنشنة Consuegna (٧٢)، كما قام في سنة ٤٩٧ هـ بهزيمة القشتاليين في فحص اللج الواقع بالقرب من طليطلة (٧٣)، كما خرج من مرسية في سنة ٥٠١ هـ ليشترك مع الأمير تميم بن يوسف في موقعة أفليش المعروفة بوقعة الأقاط السبعة السابق ذكرها، وهى الواقعة التى لقي فيها الأمير سانشو بن الفونسو السادس مصرعه (٧٤)، كما قتل فيها جند القشتاليين وكما رجالهم عددا يصل إلى ٢٣ ألفا (٧٥). كذلك خرج ابن عائشة من مرسية في سنة ٥٠٤ هـ لنجدة محمد بن الحاج عامل سرقسطة عندما حاصرها الفونسو سانشو Alfonso Sanchez المعروف بالفونسو المحارب، ملك أرغون ونبرة.

ويعتبر ابن عائشة أول أمير مرابطى قوى لإمارة شرق الاندلس مرسية، وظل يقوم بمهام هذا المنصب بالإضافة إلى قياداته لجيوش هذه المنطقة إلى أن كف بهرعه في سنة ٥٠٨ هـ عقب غزوة برشلونة

التي استشهد فيها أبو عبد الله محمد بن الحاج ، وهي المسماة بوقعة البورت (Congost de Martorell) (٧٦) ، فاستدعاه أخوه الأمير على بن يوسف إليه ، وأقام مكانه عليها أخاه إبراهيم المعروف بابن نميش (٧٧) الذي ولي أمرها إلى أن انتقل إلى إمارة إشبيلية (٧٨) . وبعد أن ابن عائشة كان يترك لأهل مرسية حق اختيار من يتولى شؤون مدينتهم ، مكتفيا هو بإمارة شرق الأندلس ، وقيادة الجيوش ، وذلك لاضطراره إلى الخروج من مقر إمارته في أوقات الحروب أو عند توجهه إلى بلنسية أو جزيرة شقر (٧٩) طلبا للراحة . ويؤكد ماذهبنا إليه أن مرسية كان لها قصران : أحدهما القصر الكبير وكان يقيم فيه ابن عائشة ، والثاني الدار الصغرى (٨٠) لإقامة وإلى المدينة ، كما يؤكد أنه ابن هذاري ذكر أنه خطب في مرسية لقائد يقال له أبو محمد عبدالله الثغرى في ١٤ شوال سنة ٤٨٩ هـ ، ولكن ولايته لمرسية لم تطل إلى أكثر من ١٦ يوما خلاعه بعدها في ٣٠ من شوال بسبب كراهيتهم لسيرته ، ثم يابها وعليهم القائد الثغرى أحمد بن أبي جعفر عبد الرحمن بن طاهر الذي تزعم الثورة على القائد أبي محمد الثغرى السالف ذكره في أول ذي القعدة سنة ٤٨٩ هـ ، ثم خلع ابن طاهر بدوره في ٢ ربيع الأول سنة ٤٩٠ هـ ، وقتل (٨١) . ثم أسندت ولايته مرسية إلى أبي زكريا يحيى بن علي بن غانية المسوفى في سنة ٥١١ هـ (٨٢) من قبل يدر بن ورقاء أمير بلنسية .

ولم يلبث المرابطون أن استنفذوا قواهم في الأندلس بسبب المعارك المتواصلة التي خاضتها جيوشهم ضد أعداء الأندلس من الممالك النصرانية في شبه جزيرة أيبيريا وتمكثل قطلونية وأرغون وقشتالة والبرتغال ضدهم ، وبسبب الهزائم التي منيت بها جيوشهم أمام الفرنسيو المحارب في سرقة سنة ٥١١ هـ وفي كتندة من قرى سرقة سنة ٥١٤ هـ (٨٣) ، وكانت هذه الموقعة كارثة للمرابطين إذ قتل فيها من المطوعة عشرون ألفا (٨٤) . وعندما طالب المرابطون أهل الأندلس ببذل العون لهم تنكر الأندلسيون لهم ، وتحولوا عنهم وأعلنوا موافقتهم عليهم ، وطردهوا ولائهم وحبطوا أمور بلادهم بأنفسهم ، واستعان فريق من ثوار الأندلس على المرابطين بجيوش قشتالية وبرتغالية (٨٥) . فاستقل ابن وزير بغرب الأندلس ، وأبو محمد سدرای ويوسف البطروجي ببلبة ، وليد بن عبدالله بشنترين ، وأبو القمير بن عزوز

بشرىش ، وعلى بن عيسى بن ميمون بقادس ، ومحمد بن على بن الحجاج ببطليموس ،
ومحمد بن المنذر بشاب ، وابن عنان بيابرة ، وابن حمدين بقرطبة ، وابن حسون
بمالقة ، وأبو أمية أحمد عاصم بأوريولة . أما مرسية فقد كان يتولى القيادة فيها القائد
أبو زكريا يحيى بن على بن غانية منذ سنة ٥١١ هـ ، وظل يقوم بولايتها إلى أن كانت
سنة ٥٣٩ هـ ، وهي السنة التي كثرت فيها الثوار بشرق الأندلس وغربها من القضاء
وغيرهم ، وكان أول الثوار على المرابطين بمرسية أبو محمد عبد الرحمن بن جعفر بن
إبراهيم بن الحاج ، قدمه أهل مرسية عليهم ، فدعا لابن حمدين الثائر بقرطبة أيا ما
من شهرى رمضان وشوال سنة ٥٣٩ هـ ، ثم سحب تبعيته له ، واستقل بمرسية .
وفي هذه الآونة ظهرت شخصية بارزة في الأندلس ، هو سيف الدولة بن هود أبو
جعفر أحمد ابن عبد الملك المستنصر بالله صاحب سرقسطة وحصن روضة الذي
تمكن من إزاحة ابن حمدين من قرطبة وتغلب على جيان وغرناطة ، فدنا من أهل
مرسية واستدعوه ، وولوه عليهم في آخر سنة ٥٣٩ هـ ، فقدم إليهم في ١٨ رجب
سنة ٥٤٠ هـ (٨٦) . وكان قد أقام عليهم من قبله قائدا من قراده يعرف بعبد الله بن
فتوح الثغرى ، الذى شرع ولايته بإخراج ابن الحاج منها في ١٥ شوال سنة ٥٣٩ هـ ،
والدعوة لابن هود (٨٧) . ولم يطل العهد بابن فتوح في مرسية ، فلم يلبث أن انقلب
عليه أهل مرسية فأخرجوه منها ، وقدموا عليهم القاضي الفقيه أبا جعفر محمد بن
عبد الله بن أبي جعفر الخشنى في آخر شوال سنة ٥٣٩ هـ ، وقلدوه رئاستهم ، وكان أبو
جعفر هذا من أهل البيوتات الكبيرة بمرسية ، وكان يتظاهر بالزهد في الإمارة
ويقول : « ليس لي صاح لي وليس لها أهل ، ولكي أريد أن أمسك الناس بعضهم
عن بعض حتى يحى من يكون لها أهلا (٨٨) » . ثم دعا أهل مرسية لابن حمدين ،
فأرسل إليهم أبا محمد عبد الله بن عياض الثغرى قائد كونكة واليا ، بينما قدم
أبا جعفر بن أبي جعفر قاضيا فتنازع الرجلان على الاستبداد بمرسية ، فدخل
أبو جعفر أهل بلده في أن يؤمره ويقدموا للقضاء أبا العباس الحلال ولقيادة
الخيل عبد الله الثغرى ، فلم يخالفوه وتمكن أبو جعفر على هذا النحو من الاستئثار
بالحكم . وما إن تم له ذلك حتى فبهذا طاعة ابن حمدين ودعا لنفسه ، وتلقب

بالأمير الناصر لدين الله ، وقبض على الثغرى فسجنه هو وصهره ، وقلد قيادة الجيوش لزغنون ، أحد وجوه الجند (٨٩) .

بعد أن أقصى الثغرى عن الحكم توجه ابن أبي جعفر إلى شاطبة ليعين أمهرا ابن عبد العزيز في إحكام الحصار على المرابطين الممتنعين بقصبتها بقيادة عبدالله ابن محمد بن غانية ، فانهز الممامسة بمرسية فرصة غياب أميرهم ابن أبي جعفر ، فأفرجوا عن الثغرى وصهره من معتقلهم ، وما كاد ابن أبي جعفر يعلم بذلك حتى بادر بالعودة إلى مرسية ، ونجح في إخماد الحركة المضادة ، فاضطر الثغرى إلى الفرار إلى كرونك ، وعندئذ عاهد ابن أبي جعفر حصاره لشاطبة ، وأرغم ابن غانية على الخروج منها ، ثم عاد إلى مرسية في صفر سنة ٥٤٠ هـ . ودعا أهل غرناطة لنجدتهم ، فاستجاب لدعوتهم ، ولكنه تآتى هزيمة نكراء على أيدى المرابطين (٩٠) بظاهر غرناطة في ربيع الأول سنة ٥٤٠ هـ ، فقبض عليه جنده ، وقتلوه وأجمع أهل مرسية على تأمير حفيد لآبي عبد الرحمن بن ظاهر ، ولكنه لم يزدوا في إمارته فخلعوه . ثم اتفقوا على تقديم القائد أبي محمد عبدالله بن عياض الثغرى (٩١) . وكان ابن عياض هذا قائدا عظيما ، أهرب إسبانيا بسيفه ، وكان النصراني يعدونه وحده بمائة فارس ، إذا رأى رايته قالوا هذا ابن عياض هذه مائة فارس (٩٢) . وقد نجح ابن عياض هم ضم بلنسية إلى إمارته بمرسية ، ودعا لابن هود (٩٣) ، ثم دعا لنفسه بعد وفاته . وكان ابن عياض قد أسقط قدم القائد الثغرى للإفادة من خبراته ، فأنفذه رسولا من قبله إلى أذونش (الفونسو السابع المعروف بالسايطين والملقب بالامبراطور (٩٤)) ليعقد معه السلم وبمائه على صاحب برشلونة ريموندو برينجر الرابع ، فدخل الثغرى مرسية في غياب ابن عياض ونار فيما يزعم أن أذونش أمره عليها فهرب محمد بن سعد بن مردنيش نائب ابن عياض فيها إلى لغنت في ٧ رجب سنة ٥٤١ هـ . ولكن ابن عياض تمكن سريعا من استرجاع مرسية . وكان ابن عياض قائدا مجاهدا ، غازی النصراني ، ولكنه استشهد في إحدى المعارك (٩٥) ، إذ أصيب بسهم رماه به أحد النصراني في ٢٢ ربيع الأول سنة ٥٤٢ هـ ، فدفن ببالنسية ، وتولى على مرسية من

بعده فائبه فيها على بن عبید ، وظل يتولى أمر مرسية إلى أن تخل عن الإمارة لابن عبد الله محمد بن سعد الجزامي المعروف بابن مردنيش (٩١) صهر ابن عياض ، في أواخر جمادى الأولى سنة ٥٤٢ هـ . وقد تمكن ابن مردنيش من التغلب على إقليم شرق الأندلس ، واستعان بالنصارى الإسبان واتخذ منهم أهوانا وجندا ضد خصومه الموحدين ، وخصص لهم بمرسية منازل فيها الحانات والبيع (٩٧) ، وأخرج كثيرا من أهل مرسية وأسكن النصارى مكانهم (٩٨) . ثم آل أمر ابن مردنيش إلى الابدان بسبب استعانتهم بالنصارى إسبانيا ضد الموحدين الذين ثابته أقدامهم في الأندلس لجمع شتاته أمام حركة الدفع الأسبانية ، واشتباك ابن مردنيش مع جيوش الموحدين في عدة معارك تبادل فيها الفريقان النصر والهزيمة ، ولكنه انهزم على أيدي الموحدين في فخص البندون الواقع شرق لورقة في ٧ ذي الحجة سنة ٥٦٠ هـ (٩٩) ولعله نفس الفحص المعروف بالفندون المتصل بفحص شنتقيرة (١٠٠) ، وقد أعاد الموحدون حصارهم لمرسية في رجب سنة ٥٦٦ هـ ، وتمكنوا من انتزاع حصن الش الواقع غربي مرسية وجزيرة شقر من يد ابن مردنيش . وفي سنة ٥٦٧ هـ عزم أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن على التغلب على ابن مردنيش ، فتظاهر بقمعه فزو القشتالين ، فشد حشودا ضخمة من قبائل الموحدين والعرب بلغ عددها مائة ألف (١٠١) وأجاز إلى الأندلس ، ونصد لإشبيلية ونزلها ، ثم جهز عساكره إلى محمد بن مردنيش ، وكتب إلى أخيه عثمان بن عبد المؤمن وإلى مدينة غرناطة ، يأمره بالزحف بعساكر الموحدين إلى مدينة مرسية دارملاكة ابن مردنيش ، فخرج عثمان بالعسكر حتى نزل في موضع قريب من مرسية يقال له الجلاب يبعد عنها بنحو أميال ويعرف بحمامة بلقواد فزحف إليه ابن مردنيش في جموع عظيمة أكثرها من الأفرنج ، فالتقى جيشه مع الموحدين في موقعة عنيفة انتهت بهزيمة ابن مردنيش وأصابه هزيمة نكراء ، تراجع على أثرها إلى مرسية وامتنع بداخل أسوارها ، واستعد للحصار (١٠٢) وواصل الموحدون حصارهم على مرسية وشددوه هذه المرة ، فاعتل ابن مردنيش بمرض الدبول وتوفي في ١٠ رجب سنة ٥٦٧ هـ ، وتكتم رجاله خبر موته حتى قدم أخوه

يوسف بن سعد الملقب بالرئيس من بالنسية ، فاجتمع رايه ورأى ابنه أخيه على أن « يلقوا أيديهم في يد أمير المؤمنين أبي يعقوب ويسلبوا إياه البلاد (١٠٣) » ، وقيل أن ابن مردنیش عندما حضرته الوفاة استدعى بنيه وخاطبهم قائلا « يا بني ، إنني أرى أمر هؤلاء القوم قد انتشر ، وأتباعهم قد كثروا ودخلت البلاد في طاعتهم ، وإنني أظن أنه لا طاقة لكم بمقاومتهم ، فسلبوا إليهم الأمر اختيارا منكم ، تحظوا بذلك عندهم ، قبل أن ينزل بكم منازل بغيركم وقد سمعتم ما فعلوا بالبلاد التي دخلوها عنوة (١٠٤) » ، ويؤكد ابن الخطيب أن ولده أبا القمحر هلال مولى الأمر من بعده ، فبادر بإعلان طاعته للموحدين ، وتخلّى لهم عن مرسية ، فوجه الخليفة أبو يعقوب يوسف إلى مرسية أخاه السيد أبا حفص (١٠٥) .

وهكذا دخلت مرسية في ذلك دولة الموحدين ، وبدخلها في دائرة نفوذ الموحدين استوسقت طاعتهم بشرق الأندلس وشماله دعوتهم . ثم توالى على مرسية ولاية الموحدين ، نخص بالذكر منهم الأشاهر أبا رجال بن غالبون (١٠٦) ، وفوجه الخليفة أبو يعقوب بنفسه إلى مرسية في ذى الحجة سنة ٥٦٧ هـ وأقام فيها زهاء شهرين (١٠٧) ، وتزوج الخليفة الموحدي الزرقاء المردنيقية لبنة محمد بن مردنیش في سنة ٥٧٠ هـ (١٠٨) ، وتلطف مع بسفي مردنیش لالتزامهم بالحكمة باستسلامهم إليه ، فأثر هلالا بصحبته (١٠٩) ، وفقد غانم بن محمد على أساطيل العدو بسببه (١١٠) ، وقدم الأمير يوسف بن سعد على بالنسية وجهاتها (١١١) وظل يتقلد هذه الولاية حتى توفي في سنة ٥٨٢ هـ .

ولما ضعفت دولة الموحدين وتفرقت كلمتهم على أثر وفاة أبي يعقوب يوسف الثاني بن محمد الناصر في سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) ، أعلن أبو محمد عبدالله بن أبي يوسف يعقوب المنصور نفسه خليفة للموحدين ، واتخذ مرسية قاعدة له ، وتلقب بالعاذل . فأقام عليها السيد أبا العباس بن أبي موسى بن عبيد المؤمن ، وانتقل العادل إلى المغرب حيث قتل في سنة ٦٢٤ هـ (١١٢٧ م) فنصب أخوه أبو العلاء لإدريس نفسه خليفة ، وتلقب بالمأمون في الوقت الذي بويع فيه أبو زكريا المعتمد

بالخلافة الموحدية في المغرب ، وبينما قامت الحرب الأهلية بين المأمون وبين المعتصم كان النصراري في إسبانيا يستولون على مدن الأندلس مدينة إشبيلية وحصنها بعد حصن ، وتغير ميزان القوى في الأندلس ، ولم تعد للمسلمين السكفة الراجعة .

وفي هذه الفترة الحاسمة من تاريخ الأندلس المشحونة بالاضطراب والغوضى قام أمير زعم أنه من سلالة بني هود ، يدعى أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود ويسميه الأسبان في عدوانهم التاريخية بسيف الدولة Zafadola ، على الخليفة الموحدي المأمون ، فأستول على مرسية وبويع له أميراً عليها ، ثم ضم إليه قرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية والجزيرة ، وأطاعته سبته (١١٢) . وأسند ولاية مرسية إلى عزيز بن عبد الملك بن محمد بن خطاب ، فدخلها في آخر رجب سنة ٦٢٥ هـ ، وكانت الأندلس تمتاز وقتئذ مرحلة خطيره من تاريخها : فالحرب الأهلية تشتد احتداداً ، والنزائب والاضطرابات الداخلية تعاضها طمعا وتمزقا إربا ، وحركة الاسترداد الأسباني تزداد عنفا ، والتوسع المسيحي يزداد اقديما في قلب الأندلس ، وانتهر ملوك إسبانيا المسيحية فرصة انقسام الجبهة الإسلامية وانفتحت وأخذوا يتوسعون على حساب دولة الاسلام في الأندلس ، وفي سنة ٦٢٢ هـ استولى خايمي الأول (جاقا) ملك أرغون على طرطوشة ومايليا ، وفي ٦٢٦ هـ سقطت ماردة وبطليوس في أيدي القشتاليين وفي سنة ٦٢٧ هـ استولى خايمي الأول على ميورقة ، كما تمكن فرناندو الثالث ملك قشتالة في ٢٣ من شوال سنة ٦٣٦ هـ (٢٩ يونيو ١٢٣٦ م) من الاستيلاء على قرطبة الحاضرة القديمة للأندلس ، وأثار سقوطها في أيدي القشتاليين الحزن والأسى في نفوس المسلمين ، وتحطمت أهواء إسبانيا الإسلامية بعد هذه الصدمة العنيفة وانكشفت رقعتها سريعا أمام الدفع السريع لحركة الاسترداد الأسباني . وتبع سقوط قرطبة سقوط غيرها من مدن الأندلس ، وأصبح الاسترداد الأسباني لما بقي من ملك المسلمين في الأندلس أمرا يكاد يكون محتوما ، وفي هذه اللحظات الحاسمة التي يتقرر فيها مصير الاسلام في إسبانيا توفي ابن هود في أوائل سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) مخنوقا بإيعاز من وزيره محمد بن الرميمي بالمرية ، بعد أن نقب في قصره نقبا (١١٣) ، وعلى

أثر وفاته وجد جايى الأول ملك أرغون الفرصة مهيأة أمامه لغزو بلاد
 كان يعتبرها منطقة امتداد للملكة ، فحاصرها برا وبحرا ، وقذفها بالمجانيق
 حصاره لها حتى نفذت فيها الأقوات واستولى الجوع على أهلها ، فتوجهوا
 العمون والنجدة إلى الأمير أبى زكريا الحفصى في المحرم سنة ٦٣٦ هـ ،
 الأجنان من تونس تحمل معه مائة الأهر الحفصى إلى أبى جميل زيان
 بلنسية ، ولكن هذه السفن التونسية لم تستطع أن تفرغ حمولاتها بسبب
 الأرغونيين لحصارهم البحرى والبرى حول المدينة الممتدة ، واضطرت هذه
 إلى تفرغ شحناتها من أطعمة وسلاح وغير ذلك بشفر دانية (١١٤) . و
 بلنسية أن استسلمت في ١٧ صفر سنة ٦٣٦ هـ (١١٥) (١٢٣٨ م) ، ود
 الأندلس عقب سقوطها نواقيس الخطر ، إذ كان الرزء على المسلمين يفقد
 والخطب فادحا ، وانطلقت صيحات الاستنصار أنطلق من أهل مرسية وبلاد
 هذه تونس لحث أميرها أبى زكريا بن أبى حفص على إنقاذ مدن الأندلس ، و
 الصرخات الشعبية التي نظمها المكاتب أبو عبد الله بن الأبار القضاحي و
 أدرك بخيلك خيل الله أنـدلسا إن السبيل إلى منجياتها د
 وهب لها من عزيز النصر ما التمسك فلم يزل منك عز المتمصر
 ويستعرض الشاعر ما أصاب الأندلس من كوارث ونكبات هـ
 الفشتالين والأرغونيين فيقول :

بالجزيرة أضحى أهلها جزرا للحادثات وأمس جـده
 في كل شارقة أمام بارقة يعود ثائمتها عنف العدا
 وكل غاربة إخراجا لشائبة تشي الأمان حذارا والسرو
 تقاسم الروم لافالك مقاسمهم إلا عقائلها المحجوبة ا
 وفي بلنسية منها قرطبة ما يذسف النفس أو ما يترق
 مدائن حاما الأشراك مبتسما جذلان ، وارنحل الإيمان حيث تـسا
 أما مرسية ، فقد انفرد بتدبير أمورها بعد وفاة ابن هود الفقيه أبو بكر

ابن عبيد الملك بن خطاب ، الذى بادر بخلق الوثائق أبى بكر بن محمد بن هود ، ودعا لنفسه وبويع له فى ٤ من المحرم سنة ٦٣٦ هـ (١١٧) أى قبل سقوط بلنسية بما يقرب من شهر . وكان ابن خطاب عالما زاهدا ، ثم انقلب بعد انفراذه بالسلطان سفاكا للدماء ، وشبهه بالملوك دون أن تكون له خبرة بأمور السياسة والحرب ، فلم تثبت كفايته للإمارة ، فأكاد يلتحم مع القشتاليين فى إحدى الوقائع حتى ولى الأدبار ، وانزعم جيشه انهزاما مخزيا ، ترعب عليه استشهاد عدد كبير من أهل مرسية ، فكروه أهل المدينة ، وعزلوه عن إمارتها ، واستدعوا فى ١٦ رمضان سنة ٦٣٦ هـ الأمير أبا جميل زيان بن أبى الخلات مدافع بن يوسف بن سعد بن مردنيش صاحب بلنسية (قبل أن يستولى عليها الأرغونيون) ودانية وأبذة وجنجاله ، فدخل المدينة طوعا ، وهاج العامة فى مرسية على ابن خطاب ، فهاجوا قصر مرسية ، وانتهبوا ما كان فيه من فرش وثياب وأنية وأموال ، وتم القبض عليه ، وظل معتقلا أياما إلى أن قتل ببعض زوايا القصر فى ٢٠ رمضان سنة ٦٣٦ هـ ، وأخذت البيعة للأمير أبى زكريا صاحب تونس (١١٨) . ولم يطل الأمر لزيان بن مردنيش ، إذ أخرجه عنها أهل مرسية ، وأعادوا الدعوة باسم بنى هود (١١٩) . وفى هذه الأنواء والمواصف السياسية التى هزت مركز الاسلام فى شرق الأندلس آثار عدد كبير من أهل مرسية الرحيل عنها رغما عنهم .

ثم تتابعت الأحداث فى مرسية سريعا فى السنين الأربعة التى سبقت سقوطها فى أيدي القشتاليين ، وأخبار هذه الفترة القصيرة غامضة فى المصادر العربية ، وكل ما زودتنا به لا يزيد على أن القشتاليين أحاطوا بمرسية من كل جانب ، وأخذوا يغيرون عليها وعلى نواحيها ، وقد أثر ذلك تأثيرا سيئا على عمرانها ، فسمات أحوالها ، خاصة بعد أن انتزع القشتاليون حصونها ومدنها ، فسقطت جزيرة شقر فى ٦٣٩ هـ . وكان الأمير محمد بن نصر بن الأحمر صاحب غرناطة ، الذى ظهر بعد ابن هود ، قد دخل فى طاعة فرناندو الثالث ، وتحالف معه بعد أن اشترط عليه فرناندو أن يكون تابعا له يزوده بالجند ، ويحارب معه بلاد المسلمين (١٢٠) .

وقنط أهل مرسية من إغاثة تأتيتهم من الداخل أو من الخارج ، فاضطروا إلى أن يمسأهوا القشتاليين في ١٠ شوال سنة ٦٤٠ هـ على الدخول في طاعتهم ودفع جزية لهم ، وسميهم القصبه إليهم . ويذكر ابن الأبار أنه لما أمكن أهل مرسية الروم منها احتج محمد بن علي بن أحلى أحد أدياء مرسية عليهم د وضل رأيتهم وأبدى مخالفتهم ، وجمعيل يجادلهم بلسانه ويجادلهم بلسانه ، فدعا ذلك إلى قصده والبعث في جهته حتى اضطر إلى المسالمة (١٢١) . ويبدو أنه كان يتولى مرسية يومئذ أحد أحفاد ابن هرد ، فقد ذكر المعرق أن أحمد بن محمد بن هرد ، ولد والى مرسية ، قدم بجهاة من وجوه الفصاري فملكهم إياها صلحا (١٢٢) .

ثم فطن أهل مرسية في أوائل سنة ٦٤١ هـ إلى حقيقة ما حدث ، فعملوا على تحرير بلدهم ، وثاروا على القشتاليين المقيمين في القصبه وأخرجوهم منها ، وأعلنوا دخولهم في طاعة ابن الأحمر ، فأرسل إليهم أبا محمد بن أشقيلولة واليسا ، ولكن القشتاليين لم يسكتوا على ذلك ، فهاجروه ، وضيّعوا عليه فاضطروا إلى الفرار بنفسه تاركا مرسية لمسيرها الشمس ، فول أهل مرسية عليهم قائدا منهم ، ورد ذكره في المصادر اللاتينية باسم ابن هذيل (Abenhodeil) ومع ذلك فقد أحس هذا الوالى بالنتيجة المحتومة ، فآثر بالاتصال بقيادة الملك القشتالى ، وفي مقدمتهم بلاى بيريث كوربا Pelay Perez Correa ، وأمسأه معه على تسليم مرسية إليه على شريطة أن يتعهد كوربا بضمان سلامة أرواح أهل المدينة وأموالهم ، وبمقتضى هذا الاتفاق دخل القشتاليون مرسية في ٩ ذى القعدة سنة ٦٤١ هـ (مايو ١٢٤٣ م) (١٢٣) .

ويشهد ابن عذارى إلى أن فرناندو الثالث ورجاله أساءوا بعد ذلك إلى الجماعة التي تزعمت حركة المقاومة في مرسية ضدهم ، فأخرجوهم منها إلى موضع يقال له الرشافة (١٢٤) يعتبر من متنزهاة مرسية المشهورة (١٢٥) ، ثم طردوهم منه بعد ذلك في سنة ٦٧٣ هـ ، وهاجموهم في الطريق ، وذبخوا منهم أعدادا هائلة .

واجتاحات الأندلس بعد سقوط مرسية موجة عاتية من الاضطراب والفوضى

سقطت خلالها معاقلة إسلامية هامة ، نخص بالذكر منها مدينة شاطبة التي خرجت من أيدي المسلمين في سنة ٦٤٥ هـ ، وإشبيلية التي استولى عليها القشتاليون في سنة ٦٤٦ هـ بعد حصار دام عاما وخمسة أشهر (١٢٦) ، وفي هذه الملاحظات الحاسمة في تاريخ الأندلس ظهرت شخصية عريضة قوية كان لها الفضل الأعظم في ضم ما تبقى من مدن الأندلس وتوحيدها في مملكة واحدة ، ذلك هو الأمير محمد بن يوسف ابن الأحمر الذي نجح في تأليف جبهة قوية أمام الخطر الإسباني المسيحي ، وقدر لأسرة بني الأحمر أن تحكم مملكة غرناطة زهاء قرنين ونصف قرن ، على الرغم من الصراع غير المتكافئ بين النصرانية والإسلام ، وما عانته هذه المملكة من حروب داخلية انتهت في آخر الأمر بسقوط غرناطة حاضرة هذه المملكة في ٢ يناير ١٤٩٢ في يد المسلمين الكاثوليكين .

* * *

كانت مرسية موطن الشيخ أبي العباس ومسقط رأسه من أعظم مدن شرق الأندلس في العصر الإسلامي ، وأكثرها عمرانًا واتساعًا ، فقد اتسعت منذ تاريخ إنشائها وأصبح لها في زمن الشريف الإدريسي ريف عامر أهل يحيط بها وبها أسوار حصينة ، وكانت مياه النهر الأبيض تشق ربضها ، وكان يجاز إليها من الربض على قنطرة من المراكب (١٢٧) ، وكان ينهرها أرجاء متفقلة على المراكب ، كما كان لها مسجد جامع جليل وحمامات عديدة وأسواق عامرة (١٢٨) ولا تحتفظ مرسية اليوم بآثار كثيرة من العصر الإسلامي ، وأهم ما تبقى فيها من العصر الإسلامي آثار حصن صغير يقال له قصير منقذ أفوط ، مازال يشرف على فحوص مرسية ، وأمل هذا القصير كان أحد القصب التي أسست في زمن تبعيتها للمرابطين (١٢٩) .

واشتهرت مرسية بخصب تربتها ، وكرم بقماتها ، وطيب ثمارها ، وكثرة البساتين والمنتزهات في أرواحها (١٣٠) ، حتى أنهم سموها بالبستان ، لكثرة جفاتها المحيطة بها (١٣١) ، ومن أشهر فواكه مرسية الكروم والتين (١٣٢) . كذلك اشتهرت

مرسية بتوافر معادن الفضة (١٢٣) ، والبلور واللازورد (١٣٤) ، واللغرة (١٣٥) . لكل ذلك ازدهرت مرسية في العصر الاسلامى اقتصاديا ، وفاقت غيرها من مدن الأندلس في مجال الصناعة ، فعرفت بصناعة الوشى والديباج والحلل (١٣٦) ، حتى قيل : دكا يتجهز الفارس من تلسان كذلك تمجهز العروس من مرسية (١٣٧) ، واختصت مرسية دون غيرها من مدن الأندلس بصناعة نوع من البسط المسماة بالنقلية (١٣٨) كانت تصدرها إلى سائر بلاد المشرق ، وفي مرسية كانت تصنع الأسرة المرصعة ، والحصر الفتانة الصنعة (١٣٩) وآلات الصفر والحديد من السكاكين والأمتصاص المذهبة وغير ذلك من آلات العروس والجندى ما يهر العقل ، ومنها تجهز هذه الأصناف إلى بلاد إفريقية وغيرها (١٤٠) . وكان يصنع في جنبالة من عمل مرسية من وطاء الصوف ما لا يمكن صنعه في غيرها (١٤١) .

وكما تألفت الحياة الاقتصادية في مرسية تألفت الحياة العلمية بها ، وازدهرت ازدهارا تشهد به الأسماء اللمعة التي ظهرت في مرسية وبرزت في سماء الفكر الأندلسى ، فقد كانت مرسية بلد العلم والأدب والفقه والتصوف ، على الرغم من النوايب التي أصابها والأحداث المتتابعة التي عصفت بها طوال العصر الاسلامى ، فمنع فيها في عصر الطوائف وعصر المرابطين عدد كبير في جميع فروع المعرفة في الفقه والحديث والنحو والأدب ، نذكر منهم على سبيل المثال الفقيه أبو محمد عبدالله بن سعيد المرسى (ت ٥٥٥ هـ) (١٤٢) ، وأبو اسحاق إبراهيم بن عامر النحوى (١٤٣) ، وأبو الحسن على بن اسماعيل بن سيده المرسى اللغوى (١٤٤) ، ومن المتصوفة : ابن سبعين المرسى (ت ٦٦٩ هـ) (١٤٥) ، والشيخ الأكبر محي الدين بن عربى المرسى (ت ٦٣٨ هـ) (١٤٦) ، ومن الكتّاب : أبو عامر بن عقيد كاتب ابراهيم بن يوسف بن تاشفين (١٤٧) ، وأبو يعقوب يوسف بن الجذع كاتب ابن مردنيش (٤٨) ، وأبو محمد عبدالله بن حامد كاتب العسادل الموحدى (١٤٩) ومن الشعراء : عبد الجليل بن وهبون (١٥٠) وعلى بن جزمون (١٥١) ، ومن الحفاظ الفقيه ابن برطلة أبو محمد عبدالله بن موسى المرسى (١٥٢) وأبو جعفر أحمد بن محمد

المكفاني المرسى (ت ٦٢٨ هـ) (١٥٣) والفقير أبو عبدالله محمد بن عبدالله السلمي
المرسى (ت ٦٥٥ هـ) (١٥٤) .

ومن علماء مرسية الذين نزلوا بمصر الفيلاسوف أبو عبدالله محمد بن يوسف المرسى
المتخصص في الفقه والحكلام ، وقد نزل الاسكندرية في سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م)
والشيخ الزاهد الكبير أبو العباس أحمد بن عمر الانصارى المرسى (ت ٦٨٦ هـ) .

* * *

وبعد فهذا ، أيها السادة ، عرض موجز لمدينة أبي العباس الذي هجرها
رغما عنه بحثا عن وطن جديد ، أنفة من الدجن أى الخضوع لحكم النصارى .
وشاء الله أن يتخذ ثغر الاسكندرية وطنه الجديد ، فيؤسس فيه مدرسة في التصوف
على طريقة أستاذه الشيخ أبي الحسن الهاذلي .

وتوفي الشيخ أبو العباس المرسى في سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٨ م) بعد ٤٤ سنة
قضائها في الثغر ، ودفن في مقبرته برباط سوار خارج باب البحر ، تاركا في نلوب
أهل الاسكندرية ذكرى عاطرة ستبقى على مر الأيام :



الموايش

(١) يرتفع نسب الشيخ أبى العباس المرسى إلى سعد بن عبادة الأنصارى ، صاحب رسول الله ، وأول من نزل الأندلس من بني سعد بن عبادة الحسين بن يحيى بن سعيد بن سعد بن عبادة الذى استوطن سرقسطة وأما بقية من قراها يقال لها قربلان (ابن حزم ، جبهة أنساب العرب ، ص ٣٤٦) ، وأصبحت سرقسطة على هذا النحو منزل الأنصارى فى الأندلس إلى أن انتقل عبد الرحمن بن محمد الأنصارى إلى بلنسية فرارا من الفتن التى احتدمت بسرقسطة (ابن الخطيب ، الإحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق الأستاذ هيد الله عثمان ، ج ١ ص ١٨٩) وعلى أثر ذلك انتقل كثير من بني سعد بن عبادة إلى نواحي الأندلس ، فاستقر بعضهم فى جنوب شرق الأندلس ، وتفرق البعض الآخر فى الشرق وعلى الأخص فى دانية وشاطبة (ابن الأبار ، الحلة السيرة ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، ج ٢ ص ٣٠٣) . وإلى قيس بن سعد بن عبادة ينسب أيضا بنو الأحمر سلاطين غرناطة (المقرئ ، نفع الطيب ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، ج ١ ص ٢٥٧ .

(٢) راجع ترجمة الشيخ أبى العباس فى : جمال الدين الشيبان ، أعلام الاسكندرية فى العصر الإسلامى ، ص ١٩٢-٢١٢ ؛ حسن السندوبى ، أبو العباس المرسى ومسجده الجامع بالاسكندرية ؛ محمد محمود زيتون ، الإمام أبو العباس المرسى ، ص ٢٢ وما يليها .

(٣) فى فضائل الاسكندرية راجع ما أورده تحت عنوان الاسكندرية دار رباط ، فى كتابى « تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى » الطبعة الثانية ، ص ٩١-٩٧ .

(٤) تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى ، ص ٢٢٩ حاشية رقم ٢ .

(٥) الضبي ، بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس ، تحقيق كوديرة ، ص ١٣٢ ، ١٣٤ .

(٦) ابن بشكوال ، العلة في تاريخ أئمة الأندلس ، ج ٢ ص ٥١٨ ؛ الضبي ، ص ١٢٥ - ١٢٨ ؛ الذهبي ، العبر في خبر من غير ، ج ٤ ص ٤٨ ؛ السيوطي حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٢١٣ - المقرئ ، ج ٢ ص ٢٩٣ ؛ جمال الدين الشيال ، أبو بكر الطرطوشي العالم الزاهد النائر ، القاهرة ١٩٦٨ .

Pons Boigues, Ensayo Bio-bibliografico Sobre los historiadores y geografos arabigo-espanoles, Madrid 1898, p. 183.

(٧) السيوطي ، حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣٥ .

(٨) نفس المصدر ٢١٤ . (٩) نفس المصدر ، ص ٢١٥ .

(١٠) نفسه ، ص ٢١٦ . (١١) نفسه ص ٢٣٥ .

(١٢) نفس المصدر ، ص ٢٣٦ . (١٣) نفسه ص ٢٣٦ .

(١٤) المقرئ ، نفع الطيب ، ج ٢ ص ٤١٥ .

(١٥) نفس المصدر ، ص ٣٩٤ .

(١٦) نفس المصدر ، ص ٣٥٧ .

(١٧) نفس المصدر ، ج ٣ ص ٣٤١ .

(١٨) ارجع إلى تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، ص ٢٢٩ .

(١٩) نفس المرجع ، ص ٤٨١ .

(٢٠) العذري ، ترصيع الاخبار وتنويع الآثار ، والبستان في غرائب البلدان ، والمسالك إلى المهالك ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني ، مدريد ١٩٦٥ ، ص ٦ .

(٢١) ارجع إلى : الحميري ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٦٢ - ابن هذاري ،

ج ٢ ص ١٦ ؛ المقرئ ، نفع الطيب ، ج ١ ص ٢٤٧ .

(٢٢) محمد محمود زيتون ، ص ٢٣ .

- (٢٣) الخيري ، ص ٦٣ : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ١١١ .
- (٢٤) يرجع بعض مؤرخي العرب فتح تدمير إلى سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) بعد هزيمة لذريق على أيدي المسلمين في واقعة وادي لكة (راجع إلى : أخبار مجموعة ، ص ١٣ ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ٢ ص ١٦) وهو تاريخ يتفق عليه الأسقف دون رودريجو والملك الفونسو العالم في كتاب التاريخ العام (Mariano Remiro, Murcia Musulmana, P.2) ومنهم من ينسب فتح تدمير إلى عبد الأعلى بن موسى بن نصير في سنة ٩٣ هـ (٧١٢ م) (راجع المقري ، ج ١ ص ٢٥٧) بينما يميل العدد الأعظم من المؤرخين إلى الأخذ برواية ابن بدور الباجي الذي يؤكد فتحها على يد عبد العزيز بن موسى (راجع : أخبار مجموعة ص ٢٦ - Saavedra, Estudio sobre la invasion de los Arabes en Espana, Madrid, 1892, p. 132 ؛ حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ١١٧) .
- (٢٥) أخبار مجموعة ، ص ١٣ - ابن عساذري ج ٢ ص ١٦ - الخيري ، ص ١٥٢ - المقري ، ج ١ ص ٢٤٧ .
- (٢٦) المقري ، ج ١ ص ٢٢١ .
- (٢٧) الخيري ، ص ١٨١ - المقري ، ج ١ ص ١٥٥ .
- (٢٨) الخيري ، ص ١٨٣ .
- (٢٩) العذري ، ص ٦ - الخيري ، ص ١٨١ - السيد عبد العزيز سالم ، دائرة معارف الشعب ، مادة مرسية ، عدد ٦١ ص ٤٧ .
- (٣٠) ابن حيمان ، المقتبس في تاريخ رجال الأندلس ، نشره أنطونية منشور ، ص ٩ - ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ٢ ص ٢٠٥ .
- (٣١) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٢٥٤

- (٣٢) الادريسي ، ص ١٩٤ - الجيري ، ص ١٥١ .
- (٣٣) ابن سعيد المغربي ، المغرب في حل المغرب ج ٢ ص ٢٧٤ .
- (٣٤) الادريسي ، ص ١٩٤ - الجيري ، ص ١٨٢ .
- (٣٥) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٩٣ - ابن عذاري ، ج ٣ ص ١٥٥ - ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٤ - Mariano Gaspar Remiro p. 92 .
- (٣٦) المقرئ ، ج ١ ص ١٥٧ .
- (٣٧) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، طبعة بيروت ، ص ٢١١ .
- (٣٨) Mariano Gaspar Remiro, Murcia Musulmana, p. 97 .
- (٣٩) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٦٢ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٩٤ .
- (٤٠) ابن عذاري ، ج ٣ ص ٢٩٣ .
- (٤١) ابن الأبار ، الحلة السراء ، ج ٢ ص ١١٨ .
- (٤٢) Mariano Gaspar Remiro, op. cit. p. 105 .
- (٤٣) راجع التفاصيل في : ابن الأبار ، الحلة السراء ، ج ٢ ص ١٢٠-١٢٢ - Remiro, op. cit. p. 107, 108 .
- (٤٤) الحلة السراء ، ج ٢ ص ١١٩ ، ١٣١ - Aguado Bléye, Manuel de historia de Espana, t.1, p. 584 .
- (٤٥) نفس المصدر ، ص ١٢٤ .
- (٤٦) ابن الأبار ، ص ١٢٤ - Aguado Bleye, op. cit. p. 584 .
- (٤٧) نفس المصدر ، ص ١٢٤ .
- (٤٨) نفس المصدر ص ١٢٤ - طالع ماورد من دراسات حول هذا الحصن في بحثي عن مرسية بدائرة معارف الشعب وفي ترجمتي لكتاب Ars Hispaniae, t. III تأليف الأستاذ جوميث مورينو الذي صدر بعنوان الفن الاسلامي في إسبانيا .

(٤٩) ابن الأبار، ج ٢ ص ١٢٤. وقد توفي أبو عبد الرحمن بن طاهر هذا في بلنسية في ٢٤ جمادى الآخرة سنة ٥٠٨، فسير بجثمانه إلى مرسية حيث دفن.
(٥٠) نفس المصدر، ج ٢ ص ١٤٦ - مذكرات الأمير عبد الله الزيري، ص ٨٠.

(٥١) ابن الخطيب، أعمال الاعلام، ص ١٦٠.

(٥٢) ابن الأبار، الحلة ص ١٤٦ - مذكرات الأمير عبد الله، ص ٨٠.
(٥٣) نفس المصدر.

(٥٤) للاستزادة في بني هود راجع رسالة الدكتوراة التي قدمها الزميل الدكتور عفيف ترك عن ملكة سرقسطة في القرن الخامس الهجري والحادى عشر الميلادى، بعنوان: El Reino de Zaragoza en el siglo XI de Jesucristo, Madrid, 1956, p. 90

(٥٥) ابن الخطيب، ص ١٦١.

(٥٦) راجع تفاصيل هذه الواقعة في المصادر والمراجع الآتية: الحلال الموشية، ص ٢٦ - ٤٣ - عبد الواحد المراكشى، المعجب، ص ١٢٢ - ابن الخطيب، أعمال الاعلام، القسم الثالث، ص ٢٤٢ - حسن محمود، قيام دولة المرابطون، ص ٢٧٣ - ٢٨٨ - عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ص ٧٢٣ - ٧٢٧
Ambrosio Huici Miranda, la invasion de los Almoravides y la batalla de Zalaca, Hesperis, t. XI 1953, p. 40.

(٥٧) مذكرات الأمير عبد الله، ص ١٠٨.

(٥٨) نفس المصدر، ص ١١١.

(٥٩) نفس المصدر، ص ١١١.

(٦٠) نفس المصدر، ص ١١١، ١١٢.

(٦١) نفس المصدر، ص ١١٢ - ابن الخطيب، ص ٢٥٧.

(٦٢) ابن الخطيب، أعمال الاعلام، نص ١٨٦.

(٦٣) هو الأمير الاديب القساند أبو عبد الله محمد بن يوسف بن تاشفين،

ولاه أبوه يوسف قائدا على شرق الأندلس لإفراغ الأمور في هذا الإقليم الحافل بالاحداث من بلاد الأندلس ، بعد أن عانت فيه قوات السيد القنبيطور فسادا (راجع : ابن الأبار ، المجمع في أصحاب القاضى الصدى ، ص ٥٥ - Codera, Estudios Criticos de historia de Espana, Familia Real de Los Benitexufin, Madrid, 1917, p, 105 - 109 ابن القطان ، جزء من نظم الجمان ، تحقيق الدكتور محمود على مكي ، ص ٨ ، حاشية رقم ١ - ابن الكردوبوس ، تاريخ الأندلس ، نص نشره وحققه الدكتور أحمد مختار العبادى ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمديريد ، المجلد ١٣ ، ص ١٠١ ، حاشية رقم ٤) .

(٦٤) راجع في ترجمته : ابن القطان ، تعليق الدكتور محمود مكي في حاشية رقم ١ ص ١١٠ - ابن الكردوبوس ، تعليق الدكتور مختار العبادى ، في حاشية رقم ١ ص ٩٦ .

(٦٥) هو القومس أو القمط (الكونى) القشتالى الفار فانيث (Alver Fanez) ابن أخى السيد القنبيطور ، أحد قواد قشتاليين سبعة للملك الفونسو السادس ، اشتبكوا في موقعة أفايش ضد المرابطين بقيادة الأمير تميم ، التى انهزم فيها القشتاليون ، وانتهت بمصرع الأمير سانشو ابن الملك الفونسو السادس من زائدة المسلمة كنة المعتمد بن عباد (لى بروفنسال ، الاسلام في المغرب والأندلس ص ١٥٩ - ابن القطان ، ص ٧ ، حاشية رقم ١) .

(٦٦) ابن الكردوبوس ، ص ١٠٠ - ١٠١ .

(٦٧) نفس المصدر ، ص ١٠١ ، حاشية رقم ٣ .

(٦٨) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٥٧ . وكان بنو ابن رشيق قد هربوا من مرسية بعد أن دخلتها قوات المعتمد بن عباد ، وانتزوا بالبحر ، ومنعوا الميرة عن مرسية ، فاختلفت أمورهما ، ووقع الغلاء بها (الحلل الموشية ، ص ٥٠) .

- (٦٩) الفتح بن خاقان ، فلانذ المقيان ، طبعة مصر ١٢٨٣ ، ص ١٦٧ -
 ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب ، ج ٢ ص ٨٧ ، ٢٤٨ .
 (٧٠) مذكرات الأمير عبدالله بن الحسين ، ص ١١٢ .
 (٧١) ابن الأبار ، المعجم ، ص ٥٥ -
 Rémire, Murcia Musulmana, p. 142 - Codera, familia real
 de los Benitexufin, p. 105
 (٧٢) ابن الكردبوس ، ص ١٠٨ .
 (٧٣) نفس المصدر ، ص ١١٣ .
 (٧٤) لبني بروفسال ، الاسلام في المغرب والأندلس ، ص ١٥٩ .
 Codera, Decadencia y desaparicion de los Almoravides
 en Espana, Saragoza, 1899, p. 9
 (٧٥) Codera, Decadencia, p. 9
 (٧٦) راجع تفاصيل الواقعة المذكورة في :
 Codera, Decadencia y desaparicion, p. 272 .
 (٧٧) ابن الأبار ، المعجم ، ص ٥٥
 Codera; Familia real de los Benitexufin, p. 105
 (٧٨) نفس المصدر ، ص ٥٦ .
 (٧٩) الفتح بن خاقان ، مطمح الأنفس ، القسطنطينية ، ١٣٠٢ هـ ، ص ٨٥ .
 (٨٠) ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ج ٢ ص ٢٣١ .
 (٨١) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٠٧ .
 (٨٢) ابن القطان ، ص ٢٢٠ ، ملحوظة ٣ .
 (٨٣) ابن الأبار ، المعجم ، ص ٥٦ - المقرئ ، ج ٦ ص ٢٠٤ - المغرب الكبير
 ج ٢ ص ٧٣٦ .
 (٨٤) المقرئ ، ج ٦ ص ٢٠٤ .

- (٨٥) المغرب الكبير ، ص ٧٤٢ .
- (٨٦) ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ج ٢ ص ٢٥١ .
- (٨٧) نفس المصدر ، ص ٢٢٧ .
- (٨٨) نفس المصدر ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .
- (٨٩) نفس المصدر ، ص ٢٢٩ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٥٨ .
- (٩٠) نتج عن هذه الواقعة أن خرجت لقنت وأعمال شاطبة من تبعيتها لامارة مرسية وانضافت إلى إمارة أبي عبد الملك مروان بن عبد العزيز صاحب بلنسية وابن الأبار ، ج ٢ ص ٢٢٠ .
- (٩١) ذكر عبد الواحد المراكشي أن اسمه عبد الرحمن بن عياض د المعبج في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .
- (٩٢) عبد الواحد المراكشي ، ص ٢٠٩ .
- (٩٣) أرسل إليه ابن هود ولده أبا بكر ، نخرج لالقائه ، واحتفى بقصدومه . كذلك قدم ابن هود بنفسه إلى مرسية في ٢٠ رجب سنة ٥٤٠ هـ ، وحل بقصر مرسية الكبير ، فأظهر له ابن عياض الطاعة ، ونزل القصر الصغير ، فعهد إليه ابن هود بالأمور كلها وخصه بالرئاسة ، ثم توجه معه ابن عياض لمحاربة القشتاليين بالبحر أو البسيط على مقربة من جنجالة حيث وافاها عسكر بلنسية بقيادة عبد الله ابن سعد بن مردنيش ، ودارت المعركة وانتهت بهزيمة ابن هود في ٣٠ شعبان سنة ٥٤٠ هـ ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ص ٢٥١ .
- (٩٤) ابن الكردبوس ، ص ١٢٠ حاشية ٢ .
- (٩٥) ابن سعيد ، ج ٢ ص ٢٥٠ .
- (٩٦) هو إسباني الأصل ينتمي إلى أسرة Martinez أو Martinus أو Mardonius الإسبانية . ودخل أحد أجداده في ولاء عربي من جذام فنسب إليه وكان ابن مردنيش من أعظم أمراء مرسية د Codera, Decadencia .
- p. 112 et sqq - ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ج ٢ ص ٢٣٢ حاشية ١ .

- د ٩٧ ، ابن الخطيب ، ص ٢٦١ .
- د ٩٨ ، عبد الواحد المراكشي . ص ٢٤٩ .
- د ٩٩ ، ابن صاحب الصلاة . كتاب المن بالإمامة ، ص ٢٧٢ - ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢٦٢ .
- د ١٠٠ ، الحمري ، صفة الاندلس ، ص ١٧٢ .
- د ١٠١ ، المقرئ ، ج ٦ ص ١١٣ ، ٢٢٢ .
- د ١٠٢ ، عبد الواحد المراكشي ، ص ٢٤٩ .
- د ١٠٣ ، نفس المصدر ص ٢٤٩ .
- د ١٠٤ ، نفس المصدر ص ٢٥٠ .
- د ١٠٥ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام . ص ٢٧١ .
- د ١٠٦ ، ابن سعيد ، ج ٢ ص ٢٥٦ .
- د ١٠٧ ، ابن صاحب الصلاة ، ص ٣١٣ ، ٢١٤ .
- د ١٠٨ ، ابن الخطيب ، ص ٢٧١ .
- د ١٠٩ ، ذكر عبد الواحد المراكشي أنه أعطى هلال بن مردنيش اثني عشر ألف دينار في يوم واحد المراكشي . ص ٢٥٤ ،
- د ١١٠ ، في سنة ٥٧٥ غزا غانم بن مردنيش أشبونة وتغلب على قطعتين من سفن العدو ، وأمر في سنة ٥٧٦ هـ وأخوه أبو العلاء وجملة من أصحابه د ابن عذاري ، ج ٤ . ص ٣٠ . ابن الخطيب : ص ٢٧١ .
- د ١١١ ، ابن الخطيب ، ص ٢٧١ .
- د ١٢ ، ابن الخطيب ، ص ٢٨٠ .
- د ١١٣ ، ابن سعيد ، ج ٢ ص ٢٥٢ - المقرئ ، ج ٦ ص ٢٠٨ .
- د ١١٤ ، ابن عذاري ، ج ٤ ص ٤٠٤ .

١١٥، ابن الخطيب ، أعمد البها لالاعلام ص ٢٧٣ - المقرى ، نفع الطيب .
ج ٦ ص ٢٠٤ .

١١٦، المقرى ، ج ٦ ص ٢٠٠ وما يليها .

١١٧، ابن الأبار ، الحلة السراء ، ص ٣١٠ - ابن الخطيب ، ص ٢٧٥ .

١١٨، ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٠٥ - ابن الخطيب ، ص ٢٧٥ .

١١٩، ابن سعيد . ج ٢ ص ٢٥٣ .

١٢٠، اشترك ابن الأحمر فى الحلة القشتالية التى استولى على مدينة إشبيلية فى
سنة ٦٤٦ هـ .

١٢١، ابن الأبار ، الحلة السراء ، ص ٣١٤ .

١٢٢، المقرى ، ج ٦ ص ٢١٦ .

١٢٣، ابن الأبار ، ص ٣١٤ حاشية رقم ٢ .

١٢٤، نفس المصدر ، ص ٣١٦ .

١٢٥، ابن سعيد ، المغرب ، ج ٢ ص ٢٤٦ .

١٢٦، ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٦٢ .

١٢٧، الأدريسى ، ص ١٩٤ - الجيرى ص ١٨٢ .

١٢٨، الجيرى ، ص ١٨١ .

Gómez Moreno, *Ars Hispaniae*, t.III, *Arte español hasta los Almohades*, Madrid, 1951

١٣٠، راجع ماورد فى المغرب لابن سعيد خاصا بقرى مرسية مثل قرية مولة
الواقعة فى غرب مرسية ، وقرية بليانة الواقعة فى شمالها (ص ٢٧١ ، ٢٧٣) ،
ومدينة لقنت المشهورة بتيغها وزيقها (ص ٢٧٤) ، ومدينة لورقة وقرية برز
المعروفين بكثرة البساتين (ص ٢٧٥ ، ٢٨٥) .

١٣١، الجيرى ، ص ١٨٢ - المقرى ، ج ١ ص ١٥٥ .

- ١٣٢٠، الادريسي، نزهة المشتاق، ص ١٩٦ .
- ١٣٣٠، ابن غالب، قطعة من كتاب فرحة الانفس في تاريخ الاندلس، تحقيق الدكتور أحمد لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الاول، ج ٢، نوفمبر ١٩٥٥ ص ١٦ - ابن الفقيه الحمزاني، مختصر كتاب البلدان ص ٨٧ - الحميري، ص ١٨٢ - المقرئ، نفح الطيب، ج ١ ص ١٣٨ .
- ١٣٤٠، كان البلور واللازورد يكثران في ناحية لورقة من عمل مرسية (الحميري ص ١٧١ - المقرئ، ص ١٣٨، ١٥٨) .
- ١٣٥٠، الادريسي، نزهة المشتاق ص ١٩٦ .
- ١٣٦٠، ابن سعيد، ج ٢ ص ٢٤٥ - المقرئ ج ١ ص ١٨٧ ،
- ١٣٧٠، ابن سعيد ج ٣ ص ٢٤٦ .
- ١٣٨٠، نسبة إلى ثنالة من عمل مرسية (الحميري، ص ١٨٢ - المقرئ ج ١ ص ١٨٧ - ج ٤ ص ٢٠٧) .
- ١٣٩٠، ذكر الشقندي أنها اختصت بالبسط بالقتالية وبالحصر الملونة التي تغلف بها الجدران (المقرئ ج ٤ ص ٢٠٧) .
- ١٤٠٠، المقرئ ج ١ ص ١٨٧ .
- ١٤١٠، الادريسي ص ١٩٥ .
- ١٤٢٠، المقرئ، نفح الطيب ج ٢ ص ٣٥٧ .
- ١٤٣٠، ابن سعيد، ج ٢ ص ٢٦٠ .
- ١٤٤٠، نفس المصدر ص ٢٥٩ .
- ١٤٥٠، المقرئ ج ٢ ص ٣٩٥ .
- ١٤٦٠، نفس المصدر، ج ٢ ص ٣٦١ .
- ١٤٧٠، ابن سعيد، ج ٢ ص ٢٥٣ .

— ٣٥ —

- ١٤٨» نفس المصدر ص ٢٥٤ .
- ١٤٩» نفس المصدر ص ٢٥٦ .
- ١٥٠» المراكشي ، ص ١٠٢ - المقرئ ج ٢ ص ١٧٩ .
- ١٥١» نفس المصدر ص ٢٩٣ .
- ١٥٢» المقرئ ج ٣ ص ٤٠٥ .
- ١٥٣» المقرئ ج ٣ ص ٣٦٠ .
- ١٥٤» نفس المصدر ج ٣ ص ١١ .



صورة عن وقعة الاسكندرية في عام ١٣٦٥/٥٧٦٧ م من مخطوطة «الإمام» للنويري السكندري^(١)

للدكتور بول كاله Dr. Paul Kahle

ترجمة وتعليق (٢)

دوريش النجلى

و

أحمد قدرى محمد أسعد

« لا توجد مدينة في العالم القديم يمكن لها أن تنازع الاسكندرية تصدرها
فيما تعرضت له مبانيها من دمار شامل ، كما لا توجد مدينة أخرى تنافسها فيما يحيط
بطبيعة طبوغرافيتها من شك وغموض ، . . . » وقد أردت أن أبرز أن تخطيط
طبوغرافية الاسكندرية لا زالت تواجهه - حتى يومنا هذا - صعوبات جمّة ،
و« كتنفخه ألغاز لا نستطيع لها حلا ، وقد تبقى هذه الألغاز - إلى وقت بعيد -
دون أن نتتمكن من الكشف عنها ، وعلى هذا ، يجب أن يكون تخطيطنا للمدينة مجرد
تخطيط تقريبي ومؤقت يقوم على الحدس والتخمين » . وهكذا يبين E. Brécia^(٣)
تلك الصعوبات المتعلقة بطبوغرافية الاسكندرية القديمة . ويرجع هذا - إلى حد
كبير - إلى أننا نجعل الكثير عن اسكندرية العصور الوسطى . والمحاولة التي نبذلها
هنا لإعادة تخطيط مدينة الاسكندرية القديمة ، هي بمثابة محاولة للتعرف على
التخطيط الذي كانت عليه المدينة في العصور الوسطى ، وهو التخطيط الذي لم يبق
منها - حتى الآن - عناية تذكر^(٤) .

إلا أن الاسكندرية في العصور الوسطى كانت - ولا شك - مدينة مزدهرة
داخل حدودها الضيقة التي ينتظمها سور المدينة العربي^(٥) وخاصة منذ أن أصبح
في العصر الفاطمي أكبر ميناء تجارى يتبادل نشاطه التجارى مع المدن التجارية

الأخرى في البحر الأبيض المتوسط . ويكفى أن نذكر في هذا المقام إعجاب الرحالة
الاندلسي ابن جبير بمدينة الاسكندرية في عصر صلاح الدين (٦) ، وأن نستعيد أيضاً
ذلك الوصف الشعري الذي سجل به ابن بطوطة انطباعاته عن الاسكندرية ، وهي
الانطباعات التي عبر عنها أثناء مسوره بها في عام ١٣٢٦ م وعند عودته إليها
في عام ١٣٤٩ م (٧) .

وقد زار الرحالة الألماني Ludolf von Sachem الاسكندرية في
عام ١٣٤٠ م ، تخلف لنا في تقريره الذي كتبه في عام ١٣٥٠ م (٨) الوصف
التالي للمدينة :

« تعتبر الاسكندرية أول مدن مصر البحرية وأعظم مدن السلطان . وهي
تقع بالقرب من أحد فرعي النيل الذي ينحدر من الجنة ، وهو النهر الذي
يصب في البحر بالقرب منها . وتصف المدينة بالجمال الفائق والحصانة الشديدة ،
فهي مزودة بأبراج عالية وأسوار منيعة . ويبدو أن سكانها القدامى كانوا من
المسيحيين ، بينما يقطنها المسلمون في الوقت الحاضر . ويمتاز داخل المدينة بحسن
الرواء ، إذ يسود البياض لون أبيها ، في حين تتفرع قنوات مياهها الجارية في كل
زاوية من شوارعها . وتلقى المدينة هناية خاصة للاحتفاظ بنظافتها ، إذ يوجد بها
المحسبة الذين يمنعون الناس من إلقاء ما يقل من نظافة شوارعها أو مياهها ،
ويحتفظ السلطان في هذه المدينة ببعض المرتبة والاتباع لحمايتها ومينائها .
وتبدو هذه المدينة للوهلة الأولى وكأنها من النشأة بمكان بحيث يستحيل الاستيلاء
عليها ، إلا أنها تعرضت للسقوط بالرغم من ذلك . »

ولا نشك في أن ثمة تطوراً سريعاً حدث في المدينة ، إذ أورد
Emmanuel Piloti - الذي أقام أكثر من ثلاثين عاماً في أراضي المسلمين قضى
معظمها بالاسكندرية - في مقاله : " Traité sur le passage dans le Terre " ،
" Sainte الذي يوصي فيه البابا يوجين الرابع Eugén IV (١٤٣١ - ١٤٤٧)
بأن يبادر بميد المساعدة للمسيحيين في مصر (٩) :

و أدى فساد الحكم الذى فرضه حكام القاهرة على البلاد إلى أن أصبحت الاسكندرية - وهى مدخل دوائهم ومفتاحها - مهجورة من السكان ، بالرغم من أنها مدينة كبيرة وجميلة ، تسكنها بالمنازل المزينة بالنقوش . ونحتوى قصورها الجميلة على الكثير من الرخام والأبنية ذات الزخارف . وبالرغم من ذلك ، فقد نزح عنها سكانها وهجروها . وقد رأيت فى أيامى بيوتاً ومساكن كان الواحد منها يساوى ثلاثة أو أربعة آلاف دوقية Ducas ، ولا يتعرض لها أحد بالشراء إلا للحصول على رخامها للنقوش وغيره من الأشياء الثمينة الموجودة بداخلها . ويرسل هؤلاء ما يأخذونه منها إلى القاهرة عن طريق النيل ، حيث يعيدون استهلاكه فى قصورهم . ولذا ، يمكن القول بأن الاسكندرية ليست إلا مدينة هجرها سكانها ، وستظل على هذا النحو حتى يأتى المسيحيون لغزوها وسكنائها وإعادتها إلى ما كانت عليه من قبل ،

ومن المؤكد أن الاسكندرية قد مرت بها تطورات أساسية فى الفترة من ١٣٤٠ إلى ١٤٤٠ ، وهى التطورات التى كشفت عنها الفسحة الفجائية التى قام بها بطرس لوزينان Peter von Lusignan ملك قبرص فى عام ١٣٦٥ ، والتى كانت بمثابة تذكرة أخيرة للحروب الصليبية . ولقد تسببت هذه الفسحة فى تخريب المدينة تخريباً شديداً ، فلم تتمكن من أن تستعيد نشاطها حتى القرن التاسع عشر ، إذ دامت نتائج هذا التدمير لفترات أخرى لاحقة . وفى حوالى القرن الخامس عشر ، أصبح القسم (الحى) العاشر من المدينة خالياً من السكان (١٠) نظراً لما أصاب المدينة من تخريب فى الداخل ، فأصبحت مهجورة ، فى الوقت الذى كانت تتداهى فيه المنازل الواحد بعد الآخر ، حتى لم يعد وسط المدينة يصلح للسكنى ، فقل عدد قاطنيه من الأهالى (١١) .

وتمثل خريطة الاسكندرية التى رسمها فى تقريره الرئيس پيرى (١٢) عن البحرية Bahrije des Piri Re'is صورة واقعية عن المدينة فى عهد الاحتلال التركى (١٥١٧) ، وهى الخريطة التى قمت بنشرها بعهد أن أعددت مسودة للطبعة

الثانية (١٣) ففي داخل سور المدينة ، نرى المسجدين الجامعين - حيث أدى السلطان التركي سليم الأول صلاة الجمعة في الجامع الغربي (١٤) ، وذلك في يوم الجمعة الموافق ٦ يونية (١٥) - كما نرى مرتفعين على بعد قريب من باب البحر . أما في شرق المدينة عند باب رشيد ، فنرى بعض المنازل التي كانت لا تزال قائمة ، وما دون ذلك فهو خراب .

وقد بدأت أعمال إعادة البناء في حوالى نهاية القرن السادس عشر خارج سور المدينة في اتجاه جزيرة فاروس (١٦) وفي القرن السابع عشر ، كان يقع داخل سور المدينة عدة فنادق ومنازل ضخمة استخدمها التجار كماوى لهم ولخدمتهم بضائعهم ، إلى جانب وجود كنيسةين وعمدة أديرة ومساجد ، أصبحت كلها مأهولة ، بينما لم يعد لهذه الفنادق وجود في القرن الثامن عشر . وفي الوقت الذي كان فيه القنصل الفرنسي Benoit de Maillet بالاسكندرية فسيما بين عامي ١٦٩٢ و ١٧١٨ ، لم يكن يسكن المدينة القديمة أكثر من مائة شخص (١٧) . وقد روى Benoit أن المرء في ذلك الوقت لم يكن يستطيع الخروج صباحاً أو مساءً دون أن يعتريه الخوف من أن يتعرض للسرقة . ومن المعتقد أن الأهالي في تلك الفترة كانوا يقيمون خارج السور في الاسكندرية الثالثة التي بنيت من بقايا الاسكندرية الثانية ، وهذه الأخيرة أنشئت على أنقاض الاسكندرية الأولى (١٨) . وقد تم تهجير معظم سكان المدينة من الميدان الموجود شمالى السور إلى ذلك اللسان الذي يصل للمدينة القديمة بجزيرة فاروس والذي نما بسرعة بعد ددم الميناء الشرقى بالرمال ، وتمطينا الصورة التي رسمها مهندسو الحملة الفرنسية (١٩) عن المدينة فمكرة سليمة عن موقعها في ذلك الوقت .

وكان من نتائج الفسار التي شنها بطرس لوزنيان في عام ١٢٦٥ م أن المقربرى وابن دقياق - اللذين ندين لها بما أورداه من بيانات دقيقة عن المدن المصرية الأخرى - لم يتمكنوا من كتابة شيء يستحق الذكر عن الاسكندرية في عصرهما .

إلا أن هناك مصدراً آخر يقوم مقام ذلك ، إذ هو يشرح لنا - بالإضافة إلى

البيانات التفصيلية عن هذه الغارة - كيف أن الفرنج الذين نزلوا الاسكندرية في عام ١٣٦٥ م قد أوقعوا بفارتهم الدمار الشديد بالمدينة . وتوجد هذه المعلومات في كتاب «الإمام بالإعلام» ، فيما جرت به الأحكام ؛ والأمر المقضية ، في وقعة الاسكندرية ، ، مخطوطة برلين 359 / 60 ، II من محفوظات Wetzstien التي نهبنا إلى وجودها لأول مرة Gildemeister (٢٠) ، وهي المخطوطة التي راجعها P. Herzsohen ثم كتب عنها بحثاً أصدره ونشره له Gildemeister في «بون» سنة ١٨٨٦ (٢١) . وقد تناول Herzsohen الموضوع بكثير من العناية ، إلا أنه لم يستطع بعد صفحة (٦٧) من بحثه أن يواصل ما بدأ فيه ، إذ عسا يلفت النظر أن هذا البحث لا يضيف جديداً (٢٢) .

هذا ، وتقدم لنا مخطوطة «الإمام» تفاصيل مسببة عن اسكندرية هذا العصر ، وهي التفاصيل التي سوف ننظر فيها بدقة بغرض الخروج منها بتقديم كل شيء عن الاسكندرية من حيث موقعها ومرافقها وأحيائها المهمة في ترجمة حرفية . وليس لدينا مصدر عربي آخر نستأنس به ويحتوي على تفاصيل وافية عن الاسكندرية أفضل من مصدر «الإمام» ، هذا الذي تأخذ عنه .

وسوف نتناول الموضوع هنا من واقع ما أورده مؤلف «الإمام» ، في كتابه بصفة عامة ، وكذلك من واقع الشروح التي قدمها كل من Gildemeister و Herzsohen .

أتى المؤلف إلى الاسكندرية في عام ١٣٣٧ م واختارها موطناً له . وبقي بها حوالي ثلاثين عاماً حتى وقعت الغارة . وقد غادر المؤلف المدينة مع الحاربين من باب البحر . ثم رجع إليها بعد انتهاء غارة القبارصة .

ومن الشواهد التي يسوقها صاحب «الإمام» ، على ما أصاب المدينة من هلاك ، تلك الجثث الكثيرة التي دفنت بعد الوقعة . وكذلك جيف الحيتوانات التي كانت مطروحة في الطرقات بأعداد كبيرة .

وفي فبراير ١٣٦٦ - أى بعد الحادثة بأربعة أشهر ، وحيث كانت الاحتمالات لازالت عالقة بالأذهان - بدأ المؤلف فى تدوين كتابه (٢٣) ، ولم يحدد نفسه بوصف الحادثة وحدها ، بل نراها قد دفعتة إلى استطرادات كثيرة من الناحيتين التاريخية والأدبية . ولهذا ، يعتبر كتابه الإسلام ، موسوعة كبيرة ، إذ يكون الجزءان من نسخة برلين - وتعداد أوراقهما ٢٧٠ ورقة (٢٤) - قسماً واحداً من هذا الكتاب ، وبذلك يمكن لنا أن ندرك السبب فى أنه استغرق ثمانى سنوات لينهى كتابه فى عام ١٣٧٤ م (٢٥) .

وقد لاحظت - فيما يختص بطبوغرافية الاسكندرية - أن سور المدينة العربى كان له سبعة أبواب (٢٦) فى القرن الرابع عشر (٢٧) . ويمكن لنا أن نحدد هذه الأبواب من واقع الدراسة التى قام بها Pococke (٢٨) الذى قام بفحص السور شخصاً دقيقاً ، وكذلك بمراجعة ما كتبه علماء الحملة الفرنسية (٢٩) ، وقراءة الخرائط المتأخرة (٣٠) .

١ - السور الشمالى :

١ - باب البحر : وهو المعروف عند علماء الحملة الفرنسية باسم Porte de L'Esplanade ، (أو باب الميدان) ، ويذكره على باشا مبارك فى كتابه (٣١) باسم باب الميدان ، كما يطلق عليه Pococke اسم The Bagnio Gate .

٢ - باب الديوان : وهو إلى الشرق من الباب السابق فى اتجاه الميناء الشرقى ، وقد عرف باسم المبنى الذى كان يوجد بجانبه وهو الديوان ، وهو مذكور عند Machaut باسم Porte de la Douane (باب الديوان) ، وكان مبنى الديوان (الجارك) فى ذلك الوقت يقع داخل السور بين باب البحر وباب الديوان ؛ أما Pococke فيطلق عليه The Old Gate .

٣ - الباب الأخضر : ويقع بعد الميناء الغربى (بحر السمسم) ، وقد عرف

أيضاً باسم باب الغرب ، إذ يطلق Pococke عليه The West Gate .

ب - السور الغربى :

٤ - باب الخوخة : ويطلق Pococke عليه Gate of Necropolis ،
ويسميه علماء الحملة الفرنسية Porte des Catacombes = باب القرافة (٢٢).

ج - السور الجنوبي :

٥ - باب السدرة : ويسمى أيضاً باب الشجرة ، ويعرف لدى Pococke
باسم Gate of the Pillar ، كما أطلق عليه علماء الحملة الفرنسية
Porte de la Colonne = باب العمود ، نسبة إلى أعمدة بومبي المعروفة .
وما زال اسم هذا الباب يطلق على شارع باب السدرة في الاسكندرية الحديثة .

٦ - باب الزهري : وكان يقع إلى الغرب من محطة القاهرة (مصر) الحالية ،
وقد أغلق هذا الباب في عهد متأخر ، ولم يرد ذكره عند Pococke أو في تخطيط
علماء الحملة الفرنسية . وقد أعيد فتحه في القرن التاسع عشر ، فظهر في رسومات
تخطيط مدينة الاسكندرية الصادرة في عام ١٨٨٧ من إدارة التنظيم العام (٢٣) باسم
باب المصري . ومن المحتمل أن بعض موظفي التنظيم الأوروبيين قد أخطأ في
كتابة الاسم ، فاعتبر حرف z = ص وحرف h = واو بمدونة .

د - السور الشرقى :

٧ - باب رشيد : ويعرفه Pococke باسم Gate of Rosette أو
Porte de Rosette .

وقد سميت الأبواب الخامس والسادس والسابع باسم أبواب البر .
ويورد مؤلف «الإسلام» سبعة أسباب أدت - في رأيه - إلى قيام حاكم قبرس
بهذه الغارة على الاسكندرية :

١ - يدور السبب الأول حول النذل الذي وقع على النصارى الذين حينئذ منهم السلطان الصالح بن محمد بن قسلاون في عام ١٣٥٤/٧٥٥ من الديونة بدواوينهم ، ويبدو أن الفرنج المقيمين بالاسكندرية قد اشتكوا إلى الدول النصرانية بما يقع عليهم من أعباء ثقيلة (٣٤) .

٢ - السبب الثاني يبدو أن بطرس القبرسي الذي تولى بعد موت أبيه ربوك (هيسو الرابع المتوفى سنة ١٣٥٩) (٣٥) قد طلب الإذن من السلطان الناصر حسن ليؤمر مدينة صور ليخلص على عمود هناك ليكسب الحكمة الصفدية الشرعية عن طريق القيام باحتفال ديني في هذا المكان ، إلا أن السلطان حسن رفض هذا الطلب (٣٦) .

٣ - ومن المعتقد أن السبب الثالث يتناقص في أن غراباً (٣٧) فرنجياً حاول مهاجمة سفينة بضائع تركية أمام الاسكندرية جاءت في اتجاه الميناء الغربي (بحر السلسلة) وألقت مراكبها قريباً من الباب الأخضر ، وقد أرسل إلى الغراب الأمير سيف الدين بلاط - حاكم الاسكندرية ونائب السلطان ، بناءً على إشارة تاج الدين موسى بن الحنازن ناظر المدينة - فتناصلا الفرنج يستخبرونه عن أمره . ثم تم تزويد سفينة الأعداء بالمؤن كطاهمهم ، ولكنهم قاموا بعد ذلك بنهب بعض سفن المسلمين خارج الميناء . وأنفذ السلطان حسن - لما نما إليه خبر الحادثة - الأمير سيف الدين بكتمر ، الشهير بالوشاقي ، إلى الاسكندرية كاشفاً ، ولفحص الأمر ، فنزل بدار للعدل المجاورة لبيت المال ، وهي التي كان بناها أيام ولايته للمدينة ، فمكشفت عن الخبر (٣٨) .

٤ - ٦ : أما الأسباب من الرابع إلى السادس ، فإنها تقوم على عدة غارات قامت بها سفن الفرنج في ناحيتي بوقير ورشيد (٣٩) .

٧ - ما قام به العوام بالاسكندرية من قتل بعض الفرنج البنادقة المقيمين بها (٤٠) . وقد دفع ذلك البنادقة إلى المشاركة في حملة القبارصة (٤١) .

ولما أنت الأخبار إلى الأمير زين الدين - حاكم البلد - عن العبارة (٤٢) في رودس - وكانت دار صناعة الفرنج - قام بتعليق أسوار المدينة بالقرب من الباب الأخضر ، وأرسل يطلب الإعانة من الأمير يلبيغا الخاصكي . وقد قللت هذه الاستعدادات التي قام بها الأمير زين الدين من فاعلية الأخطار ، في الوقت الذي كان فيه الأمير خايل صلاح الدين بن عسرام نائب السلطان في عام ١٣٦٥/٧٦٦ غائباً بسبب الحج - وكان موسم الحج هذا في نهاية شهر أغسطس من ذلك العام - حيث ناب عنه الأمير جنغرا ، بإشارة الأتابك يلبيغا الخاصكي . وقد وفد جنغرا إلى الاسكندرية في شهر يونيه من نفس العام ، فلما دخل جنغرا الاسكندرية ، رأى طوائف المتطوعة (٤٣) الحارسة لمينائها تفد عليها بالجزيرة (٤٤) ، بقسبهم الجرح المؤثرة ، وأعلامهم الحرير المنشورة ، مع ما بأيديهم من المزاريق (٤٦) ، والرماح ، والدرق (٤٧) ، والصفايح (٤٨) ، والورد النضيد (٤٩) ، ومصفحات الحديد . والنفط (٥٠) الطيار الصاعد منه لب النار . وأقام الأمير جنغرا في الغرفة التي على باب مسجد تربة طغية (٥١) ، حيث كان يشاهد أعمال الناس أثناء الليل . بينما كانت الطوائف المتطوعة تأتي تستعرض صفوفهن بانتظام ، وقد ارتدى أفرادها ملابسهم الزاهية ، في حين راحت النساء تزغرد تحية لهم (٥٢) .

وفي ٧ من أكتوبر ١٣٦٥ - وكان فيضان النيل في إبطه ، ولا يسمل الاتصال بالقاهرة إلا بالطريق الصحراوي - ظهرت بعض السفن في البحر أمام الاسكندرية من الشرق والغرب ، فاعتقد الناس أنها سفن التجار البنادقة الذين يأتون بمتاجهم في مثل هذا الوقت من العام للمبادلة بما يستورده المسلمون من بهار اليمن ويتعرضون عنها من متاجرهم . ولما لم تدخل السفن الميناء ، انتساب القاق أهالي الاسكندرية . ثم تحوالت السفن - أخيراً - إلى الميناء الغربي (بحر السلسلة) وألقت مراسيها في منطقة الباب الأخضر (٥٣) .

وقام أهالي الاسكندرية بتعزيز أسوار وأبراج المدينة التي تتجه إلى ناحية البحر برماة فسي الجرخ (الجرجية) ، وأرسل الفسرنج قارباً من سفنهم ليجس الميناء بقميرة (٥٤) ، فوجم . وأضيئت أسوار المدينة ليلاً (٥٥) .

وظل عدد كبير من أهالى الاسكندرية طوال الليل فى الجزيرة ، كما تم احدث أعداد كبيرة من باعة المأكولات . وفى صباح يوم الجمعة ، وصل جمع من العربان ، فصاروا يتطاردون بخيولهم ، ثم خرجوا من الباب الأخضر (٥٦) .

وقد أشار عبد الله - زعيم التجار المغاربة - على الأمير جعفر بإخلاء الجزيرة والانسحاب إلى ما وراء أسوار المدينة إلى أن تحضر النجدة العسكرية من القاهرة (٥٧) .

ولكن أصحاب الربط بالجزيرة اعترضوا على هذا رأى ، إذ لم يرغبوا فى ترك ربطهم ، وبينوا كيف أن المغاربة قد تسببوا فى إخراج راب بلدهم طرابلس عندما أخذها الفرنج (٥٨) ؛ فرفض جعفر اقتراح التجار عبد الله ، وترك الناس أمام سور المدينة (٥٩) .

ثم تحركت سفينة قيادة العدو متجهة إلى اليابسة ، ونزل جماعة من المغاربة إلى الماء وأمسكوا بالسفينة ، فبدأ القتال (٦٠) . إلا أن الزرقاين (٦١) لم يستطيعوا حماية المغاربة حماية كافية . فقتل الفرنج - بالسفينة - عليهم ، ونمكت سفينة العدو نتيجة لذلك من أن ترضوا بالشاطئ ، ثم تبعها السفن الواحدة تلو الأخرى ، فنزلت القوات من المراكب بخيلها ، ورمت الخيالة على المسلمين بالسهام ، وقدمهم أصحاب الدرق والسيوف مشاة على الأقدام (٦٢) .

ولم يكن المسلمون قد اعتدوا بأسلحتهم تماماً ، فلم يستطيعوا القيام بأى إجراء مضاد إزاء أصحاب الدرق الرجالة . ثم سارع العربان بالفرار على خيولهم ، كما بدأ الأهالى ينزاحون هاربين فى اتجاه السور (٦٣) .

وسوف أورد هنا بعض الإشارات المستمدة من تفاصيل عمليات القتال التى وصلت إلينا . ومنها أن جماعة من رماة قاعة القرافة المتطورة حوصرت فى أحد الأربطة خارج باب البحر بالجزيرة (٦٤) ، وقامت جماعة المسلمين بالدفاع عن الرباط من أعلاه . وروى ذلك عبد الله بن الفقيه أبى بكر - قيم مسجد القشميرى - وكان

مخزناً بصهرجج الرباط المذكور قريباً ، بن محمد الخياط الذي لم يمسه الفسرنج بسوء مراعاة اصغر سته ، ولاكنهم اخذوه اسيراً . وقد أخبر بهذا - فيما بعد - الشيخ أحمد ابن النشائي شيخ رماة قاعة القرافة (٦٥) .

وشهد الأمير جنغرا - وقد جرح أثناء القتال الذي دار بالجـزيرة - عملية هروب الالهالى ، فقدم على ما افترفه من خطأ . وحاول أن يصل إلى ناحية المطرق المواجه لدار السلطان (٦٦) - غرب الاسكندرية من ظاهر سورها - خائضاً بفرسه في الماء ومن تبعه من المسلمين فدخل الاسكندرية من باب الخوخة ، فأنى بيت المال - الواقع في غرب المدينة - وأخذ ما كان فيه من ذهب وفضة وأخرجهم من الاسكندرية (٦٧) .

وأخرج الجبلية تجار الفرنج وقناصلهم المقيمين بالاسكندرية - وكانوا حوالي خمسين نفرأ - من باب البر ، ووجهوهم إلى ناحية دمنور . وقد أجبرهم الجبلية على الإذعان لهم بعد أن ضربوا - أى الجبلية - عنق واحد منهم (٦٨) .

وفى أثناء ذلك ، نزل العدو على السور الشمالى ، وحاولوا إشعال النار في باب البحر ، فعمدوا إلى براميل الخشب المفعمة بالمواد المشتعلة يدحرجونها نحوه بأسفة وملاحم ؛ إلا أن المدافعين عن السور تمكنوا من صدحهم . فها كان من الفرنج إلا أن تراجعوا متجهين إلى الميناء الشرقى ، حيث وجدوا مكاناً من السور قد خلا من المدافعين ومن خندق يعوقهم عن تساق هذا الموضع منه . فها كان منهم إلا أن تقدموا في اتجاه باب الديوان فأحرقوه ثم اقتحموه ، في الوقت الذي صدعوا فيه على السور بعد أن نصبوا عليه السلالم الخشبية المفصلة [المركبة بعضها فوق بعض (٦٨)] ويرجع السبب في ترك هذا الموضع بدون حراسة إلى أن شمس الدين بن غراب - كاتب الديوان - وشمس الدين بن أبى عذبة - ناظره - قد أمرا بإغلاق باب الديوان المذكور خوفاً من أن يتمكن التجار من تهريب بضائعهم منه إلى المدينة دون أن يسندوا ما يرض عليها من رسوم . ولقد شاع الاعتقاد - بعد الواقعة - أن ثمة خيانة حدثت ، إذ يورد مؤلف الإسلام ، أن حاكم قـبرس قد حضر

بنفسه إلى الاسكندرية كأحد التجار ، ونزل عند ابن غراب ، فأتاح له ذلك فرصة التعرف على أحوال المدينة . وعلى كل حال ، تأثر الأمير صلاح الدين ابن عرام بما شاع عن خيانة ابن غراب ، فانخذ ذلك شاهداً على إدانته ، فأمر بأن يوسط (٦٩) ابن غراب وتعلق جثته على باب رشيد . ومما يلفت النظر عن هذه الشائعة إلى سرت بين المصريين ، ما أورده Machaut عن شخص يدعى بيرسفال الكولوني Perceval de Coulogne - وكان قد أخذ أسيراً قبل الواقعة - من أنه كان في استطاعته النجول في المدينة بحرية تامة ، فساعدته ذلك على أن يحيط الملك القسبرسي علماً بمواطن ضعف المدينة في شرق السور الشمالى (راجع : Vs. 2766-2799) . إلا أن ثمة حقيقة لا يمكن تجاهلها ، وهى أن الابواب التى كان ينظمها هذا السور كانت مغلقة بإحكام لدرجة استحالة دخول أى فرد من الجزء الباقى من السور إلى المواضع الأخرى بين هذه الابواب (٧٠) .

وحالما رأى المسلمون العدو على السور ، اعتقدوا أن المدينة قسدت مقطعت ، فراحوا يتلبسون الخلاص هاربين من ابواب البر الثلاثة : باب السدرة ، وباب الزهرى ، وباب رشيد . فتمكن الفرنج بذلك من احتلال باب السدرة حيث نصبوا عليه الصليبان . وقد سجل لنا Machaut (Vs. 2980 ff) ما قام به الفرنج من هجوم فى اتجاه باب السدرة حتى وصلوهم إلى القناة التى يقوم عليها الجسر الواقع جنوبى هذا الباب (٧١) .

ثم تحول الفرنج يمتدحون ابواب المنازل المغلقة ، ينهبون ما فيها ، كانواهبوا المتاجر والفنادق ، وحملوا ما وجدوه على الجمال والبغال والخيول ، وقتلوا من كان مختبئاً ، وعرقبوا الخيول والثيران ، وأشعلوا كذلك النار فى القياصر (٧٢) والخانات (٧٣) ، وكسروا القناديل بالمساحد والجوامع ، وثبتوا على الأسوار أعلام الصليبان ، وأسروا الكثيرين من الأهالى . وقد استغرقت عمليات السلب والنهب والحطوف من بعد ظهيرة يوم الجمعة حتى يوم السبت (٧٤) الموافق ثانى صفر (٧٥) ، ولما كان لما أورده مؤلف الإمام ، - عما أنزله الفرنج من تدمير بالمدينة - أهمية بالغة ، رأينا أن نسوقه هنا مترجماً ترجمة حرفية :

(... فكان مما أحرقوه : حوانيت الصرف بكالها ، وسوق القشاشين بالمعاريج (٧٦) ،
والحوانيت الملاصقة لقيسارية الأحاجم من خارجها من الجهة الشرقية ، وحوانيت
شارع المرحانيين وبعض فنادقه ، وفندق الطليبة (٧٧) ، مع فندق الجوكندار ،
وفندق الدمايني بسوق الجوار (٧٨) ، وكالة الكتان المقابلة للجامع الجيوشي (٧٩)
بالقرب من المطارين ، مع سوق الخشابين . وأحرقوا أيضاً درابزي (٨٠) مدرسة
ابن حباسه ، مع سقف الإيوان ، وعيشوا بكل ناحية ومكان ؛ وأحرقوا باب مدرسة
الفخر القريبة من باب رشيد ، وتعبث بإحراق حوانيت المنجحة كل عاج مرید (٨١)
... (١٠٨ ب) ثم إن الملاحين أحرقوا فندق الكيتلانيين (٨٢) ، وفندق الجنوبيين ،
وفندق الموزة ، وفندق المرسيليين ، فصارت النار تعمل في الفندق والبضائع التي لم
تجد لها الفرنج محلاً معهم لإشحان مراكزهم بما أخذوه من أموال الاسكندرية . ثم
كسرت الفرنج أيضاً حوانيت الشماعين (٨٣) والبياعين (٨٤) ، بهد نهب قيسار
البنازين ، وكسروا ما فيها من الأوعيسة والآواني والأحقاق والبراني ، فصارت
ملقاة مطروحة في الطرقات ، قد سال ما فيها من زيت وعسل وسمن وغير ذلك .
وكسروا أيضاً حوانيت الصاغة ، وأخذوا ما فيها من مال ومصنوخ . كما أخذوا من
حوانيت الصرف ما فيها من ذهب وفضة ، ونهبوا أيضاً الحرير الذي قدمه به تجار
الأحاجم وغيرهم إلى الاسكندرية ، وكان ذلك عدة قناطر . ونهبوا من الدور
الأموال والأقشة والمصاغ والفرش والبسط والنحاس وغيره ، وأخذوا معهم باب
المغار الذي كان عمده الأمير صلاح الدين بن عرام قبل الوقعة على الأساس الذي
كان أسسه الملك المنصور قلاوون (٨٥) وبطلت عمارته ، فعمل ابن عرام على الأساس
المذكور حصناً دائراً وعمل له الباب المذكور . ثم أخذ الفرنج شهابيك قبة تربة
الأمير طغية التي بالجزيرة ، وأحرقوا سقف الربط التي بها - وهي التي خافت عليها
أصحابها (٨٦) من الفرنج قبل نزول الفرنج (٨٦) من مراكزهم - وكسروا قناديلها
وقناديل المزارات . وأفسدوا قصور الجزيرة وترها ، وكسروا أعمدة قبة منير (٨٧)
مصلى العبد وعمودي (٨٧) ضرائح قبة تربة الأمير طغية والأمير بلاط اللذين (٨٨)
فيهما تاريخ وفاتهما ، وكانا موهين بالذهب واللازورد . وفعلوا حلقتي باب المدرسة

الخلاصية التي عمرها نور الدين بن خلاص - وكانا من النحاس المخرم - فعمل لباب المدرسة المذكورة غيرهما بعد عدة أشهر من حين الوقعة ، وأخذوا منها كرسى الربعة وبئتها ، وكانا من النحاس الأندلسي المخرم ، المنزل فيهما اليقعات (٨٩) الفضة بدايرهما ، لم ير مثلهما حسن صنعة وتدفيق تخريم ، (١٠٩ أ) وتركوا أجواز الربعة الثلاثين جزءاً (٩٠) مطروحة بالمدرسة المذكورة ، لم يأخذوا منها جزءاً واحداً .

وصعدوا صومعة المدرسة النابلسية ، فوجدوا فيها (٩١) جمال الدين - ابن بانها - مختفياً منهم ، وكان شيخاً كبيراً ضيف البنية ، فألقوه على رأسه من أعلاها إلى الأرض ، فاندقت عظمه ، فمات شهيداً - رحمه الله - وقتلوا من وجده وجده بالجوامع والمساجد .

وأقاموا بالاسكندرية المرابيد (٩٢) ، فقتلوا الناس في الدور والحمامات والشوارع والخانات . وكانت الفرنج تخرج بالتهب من الاسكندرية إلى مراكبهم على الإبل والحيل والبغال والحمير ، فلما فرغوا من التهب وقضوا أربهم (٩٣) من البلد ، طعنوها بالرماح ، وهرقوها بالصفاح ؛ فصارت مطروحة بالجزيرة والبلد (٩٤) ، لم يعلم لها عدد ؛ فهلكت وجافت ، فأحرقها (٩٥) المسلمون بالنار لتزول رائحة جيفها .

ثم إن الفرنج تحصنوا بمراكبهم بعد وفرا وإشجانها بما نهجوه ، وكانت يزيد على سبعين مركباً (٩٦) ، وتركوا بالساحل فضلات البهار التي لم يجدوها محملاً ، فرجع إلى أربابه ، من وجد علامة (٩٧) عليه أخذوه .

ثم إن مراكب الفرنج ثقلت بما فيها ، فصاروا يلقون ما فيها (٩٨) في البحر - على ما قيل - لتخف من كثرة الوسق . وكانت الغواصون يرفعون النحاس وغيره بناحية بوقير .

ولولا اطف الله - تعالى - بعباده المسلمين ، بحر قهم باب رشيد وباب الزمري ، كانت الفرنج ملكت البلد ، وحصل التهب في خلاصها (منهم كما حصل) (٩٩) في طرابلس الغرب (١٠٠) ومدينة أنطاكية ببرالتركية . . . (١٠١)

ولطف الله - تعالى - (أيضاً بعباده المسلمين) (٩٩) في عدم معرفة الفرنج لقصر السلاح (١٠٢) الذي بالموضع المعروف بالاسكندرية بالزربية (١٠٣) ، فلو فهموه أحرفوا جميع ما فيه من السلاح المدخر من عهد (١٠٤) الملوك السالفة - رحمة الله عليهم - فلقد وضعوا فيه من الأسلحة الكثيرة ما ليس لعدددها حصر .

ذكر أبو العباس أحمد - شيخ رماة قاعة القرافة المرصدة (١٠٥) سلاح الجهاد المنطوع به (١٠٥) : بها ستون (١٠٦) ألف سهم من بعض السهام التي في أحد بيوت قاعة من قاعانه . قيل إن فيه عدة قاعات ، في كل قاعة عدة بيوت ، في كل بيت آلاف مؤلفة من السهام ، إلى غيرها من السيوف ، والرماح ، والآتراس ، والخوذ ، والعنايب (١٠٧) ، والزرد ، والزرديات (١٠٨) ، (١٠٩ ب) والأطواق ، والقرقات (١٠٩) ، والسواعد (١١٠) ، والركب (١١١) ، والساقات (١١٢) ، والأقدام الحديد (١١٣) والقسي الملوأمة (١١٤) ، والجرج (١١٥) ، والركاب (١١٦) ، والأعلام ، ما لا ينحصر بالأعلام . ثم فيه أيضاً من حجارة العلاج (١١٧) ، والمدافع ، والنفط ، وحيل الحروب ومكائدها (١١٨) كثير (١١٩) .

فلو علمت به الفرنج أحرقته سريعاً ، لحصل اللطف الكبير ، عن اللطيف الخبير ، لعدم معرفتهم إياه بعد أن أتوا إلى بابه ، ظنوا أنه أحد أبواب المدينة ، خافوا من كسر بابه ليتمكن وراءه كمين (١٢٠) يطبق عليهم (١٢١) .

قال المؤلف - غفر الله له ولوالديه والمسلمين أجمعين - : حدثني الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن يوسف - حارس القصر المذكور ، ويعرف بابن قراجا - قال : كنت بمفردي لما دخلت الفرنج الاسكندرية ، فأغلقت بابه ، وقصرت حزب صيدى الشيخ الصالح أبي الحسن الشاذلى (١٢٢) ، وإذا الفرنج أتوا إلى الزربية (١٢٣) فيهم خيالة ومشاة وكنت صعدت أهلى (١٢٤) الفصر ، فصرت أنظر إليهم من شقوق في حائطه ، فطلع بعضهم على زلافة بابه ، وصاروا يتشاورون في أمره . وكنت أعددت لنفسي مكاناً اختبئ به إن دخلوه ، لكن خفت بأن يحرقوه فأهلك بالثار ؛ فرففوا ساعة ، وتركوه ومضوا ... ،

نعود إلى ذكر ما أحرقته الفرنج أيضاً بالاسكندرية : وذلك أنهم أحرقوا أبواب البحر (١٢٥) الأول والثاني ، وأبواب الباب الأخضر الثلاثة ، وباب الخوخة ، والمجانيق (١٢٦) التي كانت بالصناعتين الشرقية والغربية . وكانت أهل الاسكندرية وقت هزيمتهم أحرقوا أغربة كانت بالصناعة الشرقية لثلاث أخصدهم الفرنج . فلما رأتهم الفرنج محروقة ، أحرقتهم بالنار . ثم أحرق الفرنج أيضاً دار الطراز والديوان بعد أن أخذوا ما في دار الطراز من الاستعمالات (١٢٧) الرفيعة الثمن ، وأحرقوا أيضاً قلعة ضرغام (١١٠) والمكان المعروف بالكندس (١٢٨) وكان يرسم الاستعمالات أيضاً (١٢٩) .

وقد ذكر مؤلف الإلمام ، أن الفرنج مكثوا بالاسكندرية حوالي ثمانية أيام ، ثم سارعوا بالرحيل عندما شاهدوا اقتراب الجيش المصري لنجدة المدينة ، فأعلنت سفنهم تحمل - علاوة على مائتيه من المدينة - نحو خمسة آلاف أسير استرقوهم وباعوهم في بلاد الفرنج (١٣٠) ، كما يذكر للقورخون المصريون تلك الاستعدادات الحربية الكبيرة التي قام بها سلطان مصر بعد الواقعة ؛ فقد حضر السلطان إلى الاسكندرية ، وأشرف بنفسه على ترميم ما خربه الفرنج ودمروه (١٣١) . وقد أرغم التجار النصارى على الاسهام في جمع مبالغ كبيرة من الأموال لفداء الأسرى ، كما ألقى وجوهم في الحبس ، وأنفذ في نفس الوقت - البطريق إلى قبرس لرأس مباحثات اقتداء الأسرى . وانتهى الأمر أخيراً بعودة العلاقات التجارية بين مصر والدول الأوروبية المسيحية .

وكانت قد أشرت أكثر من مرة إلى أن الاسكندرية لم تتمكن من استعادة مكانتها السابقة رغماً عن المحاولات العديدة التي بذلت في ذلك ، ورأينا كيف انعكشت المدينة وزادت إقفاراً داخل سورها العربي . ولقد أدى اكتشاف البرتغاليين للطريق البحري إلى جزر الهند الشرقية إلى أن فقدت مصر مركزها التجاري ، كما فقدت بعد ذلك استقلالها لتصبح مجرد ولاية تابعة للامبراطورية التركية (العثمانية) في عام ١٥١٧ . وقد أفنى هذا كله إلى أن تحدت المدينة بذلك

الميدان الصغير الموجود خارج الأسوار ، ولم يبلغ تعدادها سوى بضعة آلاف من السكان .

وقد كان ما عر ضناه الآن بمثابة مثل حى عن سقوط مدينة أثرية عالمية ، تمتعت بمكانة عظيمة فى العصور الوسطى . ويهمنى من كل ذلك أننا نتمتعنا عملية سقوطها بشئ من التفصيل ، بعد أن أدى هجوم الفـرنج عليها إلى إفتقارها السكـال وندهـر القسم القديم منها تدهـراً كاملاً (١٣٢) .



الحواشي*

١ - (أصدر Kahle هذا المقال بعنوان :

Die Katastrophe des Mittelalterlichen Alexandria,
in Mélange Maspero, III, Orient Islamique, pp.
137 - 54, Institut Français, Le Caire 1940.

- المترجمان)

٢ - (راعينا عند ترجمة المقال من الألمانية إلى العربية - والذي يحتوي
أيضاً على فصوص بالفرنسية الحديثة ، والفرنسية الوسيطة ، والأينينية -
الأنفيل إيراد النصوص من نسخة برلين لخطوطه والإمام ، التي رجح
إياها Kahle في مقاله حتى تسهل المقارنة بما أورده . وفي نفس الوقت ، قمنا
بالتعليق في بعض المواضع وبشرح بعض المصطلحات والألفاظ لجلاء معناها .
ويهمنا أن نشير هنا إلى أن نسخة برلين التي استأنس بها Kahle لا تحمل
اسم مؤلفها (وهو محمد بن قاسم بن محمد الفويري المالكي السكندري) مما
حدنا بالسكاتب إلى اغفال اسمه في مقاله ، ولكنه يستدرك ذلك في الحاشية
الموجودة بآخر هامش في هذا المقال . وما يلفت النظر أيضاً ، أن نسخة
الهند من خطوطه والإمام ، تحمل خطأ اسماً غير اسم المؤلف ، فجاء في
صفحة العنوان : (. . . تأليف الشيخ الإمام ، سلطان العلماء الأعلام ،
رحلة (كذا) المحدثين القدوة ، أبو عبد الله محمد بن عمر بن زين الدين الواقدي ،
رحمة الله عليه) . وتوجد نسخة ثالثة محفوظة بدار الكتب المصرية
بالقاهرة تحمل رقمين هما : ٢٨٥٥٨ (عمومية تاريخ) و ١٤٤٩ (خصوصية
تاريخ) لم يثبت فيها أيضاً اسم المؤلف ، إذ يرد في صفحة العنوان : (تأليف
الشيخ الإمام العلامة ، العمدة المهام الفهامة ؛ رحمه الله تعالى وأرضاه ، وجعل
الجنة مثواه ؛ وأعاد علينا من بركته ، آمين) . ولكن في صفحات النسخ

* كل ما جاء محصوراً بين هلالين ○ بالحواشي هو من تعليقات وشروح المترجمين .

الثلاث : برلين ، والمهند ، ودار الكتب ، ما يثبت به اسم المؤلف وسقط رأسه - النورية - ونزوحه إلى الاسكندرية حيث أقام وشاهد بعض أيام الوقعة المذكورة . أما العنوان الكامل للمخطوطة ، فهو يختلف في قليل أو كثير - من نسخة إلى أخرى ؛ فهو في نسخة برلين - التي رجح لها Kahle :- (هذا كتاب الإمام العلامة فيما جرت به الأحكام والأمر المقضية في وقوع الاسكندرية) ؛ وفي نسخة الهند (كتاب مرآة العجائب وأحاديث الحمار (كذا) ... وذلك بالإمام ، فيما جرت به الأحكام ؛ المقضية ، في وقعة الاسكندرية ؛ مع ما أضيف إلى ذلك من الاستطرادات ، المستحسنات ؛ الحارثية لأصناف الفنون والعلوم الأدبية والتاريخ والأخبار والسياسة ، وتدبير الممالك ؛ وللملوك والدول والرعية ، وغير ذلك مما لا بد للفاضل الرا . . . عليه ، فيما يحتاج إليه ؛ ولا يستغنى عنه) ؛ وفي نسخة دار الكتب : (كتاب الإمام ، بما جرت به الأحكام ؛ المقضية ، في وقعة الاسكندرية ، في سنة سبع وستين وسبعمائة ، وعسودها إلى حالتها المرضية ؛ مع ما أضيف إلى ذلك من الواردات ، المستطرادات) . وتوجد نسخة رابعة من هذا الكتاب - عبارة عن مستخرج لا يزيد عن بضع ورقات - هي نسخة المتحف البريطاني بلندن تحت رقم ٦٠٦ ، وتحتوي على وصف لبلاد الهند . هذا ، وتوجد صور شمسية بمكتبة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، للنسخ الثلاث الأولى المذكورة ، فتحمل نسخة برلين رقم ٦٦٧ م ؛ ونسخة الهند رقم ٧٣٨ م ؛ ونسخة دار الكتب (وهي الجيزة الأخيرة منها) رقم ٧٣٧ م . أما نسخة لندن ، فيوجد منها صور شمسية محفوظة بمكتبة ورثة المرحوم الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال .

ولعل أصبح عنوان الكتاب « الإمام ، هو ما ورد في نسخة برلين (١٠) حيث يفتص عليه النويري فيقول : . . . ولما كمل هذا الكتاب ، الذي هو نزعة لأولى الآداب ، سميته : (كتاب الإمام بالإسلام ، فيما جرت به الأحكام ؛ والأمير المقضية ، في وقعة الاسكندرية ؛ مع ما أضيف إلى

ذلك من الاستطرادات المفيدة ، والموضوعات المستحسنة ... ، بينما ورد في (١٠ ب) من نسخة الهند : (كتاب الإلمام ، فيما جرت به الأحكام ، والأموال المقضية ، في وقف) الاسكندرية ، مع ما أضيف إلى ذلك من الاستطرادات ، المستحسنة ...) .

ولا يفوتنا أن نقوه هنا بأننا رجعنا في مواضع من الترجمة والتعليق إلى استاذنا : الدكتور السيد عبد العزيز سالم أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد بكلية الآداب جامعة الاسكندرية ، والأستاذ راشد فضيل أمين المتحف بالسككية ، فلزمنا الشكر لهما لما بذلاه من مساعدة - لا تنسى - لتوضيح بعض ما غمض علينا . كما لا يفوتنا - أمانة - أن نشير ، إلى أن استاذنا الراحل الجليل ، الدكتور جمال الدين الشيال - أستاذ التاريخ الإسلامى ، وعبد كاتبة آداب الاسكندرية سابقاً - كان على نية إخراج كتاب ، الإلمام ، كاملاً بعد تحقيقه ؛ فقد شرع فيه ، ولكن المنية عاجلته - رحمه الله - فقبل الفراغ منه : المترجمان .

٣ - Alexandria ad Aegyptum, Bergamo, 1914, p. 49,54. ٤ - "تورد مثالا على ذلك ما أورده Breccia في معرض كلامه على ماساقه محمود الفلاسكى عن وصف شوارع المدينة ، إذ يقول Breccia : " يجب أن نلاحظ - قبل كل شيء - أن عمالية وصف شوارع المدينة التى كُتف عنها محمود الفلاسكى لا تقتضى للعصر البطلمى ، وإنما ترجع إلى العصر الرومانى ، (انظر : ص ٦١) . ومن المشاهد ، أن محمود الفلاسكى لم يلتفت إلى ضرورة الاهتمام - بالدرجة الأولى - بتخطيط شوارع المدينة العربية ، إذ يقول خليل الظاهرى - الذى أصبح حاكماً للاسكندرية في عام ١٤٣٥ - فيما يختص بهذه الشوارع : " وهى مدينة مركبة على العمدة ، وشبهها بعضهم برفعة الشطرنج لأن جميع شوارعها وأزقتها نافذة بعضها إلى بعض " (زبدة كشف الممالك ، نشر Ravaisse ، باريس ١٨٩٤ ، ص ٤٠) . ومن المؤكد أن معالم هذه الشوارع كانت ظاهرة بوضوح في ذلك الوقت بالرغم

بما أصابها من تدمير على يد الفرنج ، بينما اختفت معالمها نهائياً في القرون التالية . هذا ، وتطابق شوارع المدينة الرئيسية في العصر العربي ما كان يعرف قديماً بالشوارع الرومانية . ومن الواضح أن محمود الفلكي عندما شرع في إحصاءه عن تخطيط المدينة ، كان قد شاهد - أول ما شاهد - تلك الشوارع التي لا تحصل سوى الطابع الذي كانت عليه في العصر العربي .

٥ - راجع مقال :

Zur Geschichte des mittelalterlichen Alexandria (Der Islam, Bd. XII, Berlin 1921, S. 29 ff) .

The Travels of Ibn Jubair. Ed. Wright - de Goeje, - ٦
1907, S. 40 - 43,

Ed. Defrémery et Sanguinetti, I, 27 - 48. - ٧

Ludolfi Rectoris ecclesiae parochialis in Su- - ٨
chem : De itinere Terrae Sanctae liber. Nach alten Handschriften berichtet herausgegeben von Friedrich Deychs, Bibliothek des Litterarischen Vereins in Stuttgart, XXV, 1851, S. 35.

Monuments pour servir à l'Histoire des Pro- - ٩
vinces de Namur, de Hainot et de Luxembourg, t. IV , Bruxelles 1846, p. 351 f.

Tucher (1479) ; vgl. Feyerabend, Reyssbuch, - ١٠
S. 368 f.

Felix Fabri (1483) ; vgl. Evagatorium . . . - ١١
Stuttgart, 1879, III, 138 ff.

١٢ - (كان بيري رئيس - أو الرئيس بيري - أحد أمراء البحار العثمانيين

في عهد السلطان سليمان القانوني ، وعين في سنة ٩٥٩ هـ / ١٥٥٢ م قبودانا
ببحرية الإيالة المصرية ، وله كتابان في الجغرافية عن كل من بحر إيجة والبحر
الأبيض المتوسط ، تناول فيهما بالدراسة تياراتهما البحرية ، والأعماق فيهما ،
وموانئهما ، كما عني في كتابيه بوصف أحسن أماكن رسو السفن في البحرين
المذكورين وذلك من واقع مشاهداته الشخصية ؛ انظر : Edward S. Creasy, History of the Ottoman Turks, p. 179, London 1878 اسماعيل سرهنتك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ،
ج ٢ ، ص ٤١ ، ١٨ ، الطبعة الأولى ، بولاق ، القاهرة ١٣١٤ هـ المترجمان .

١٣- Paris, Suppl. ture 956, fol. 357 b / 358 a.

(انظر هذه الخريطة التي نشرها Kahle في أواخر لوحات نفس
الدورية التي أصدر فيها مقاله تحت عنوان :
Alexandria nach Piri Re'is - المترجمان) .

١٤- كان أصل هذا الجامع كنيسة من كنيسة ثيوناس Theonas التي شيدت
في الفترة ما بين ٢٨٢ و ٣٠٠ م وكانت مقراً للبطريركية في القرنين الثالث والرابع
الميلاديين ، ثم تحول بعدها مقر البطريركية إلى كنيسة Caesareum . ويوجد
لهذا الجامع تخطيطات ورسوم في الأطلس الموجود في Description de l'Egypte, Antiquités, V, pl. 36 f. وقد حول محمد علي هذا الجامع
إلى مستشفى لقوات الجيش البحرية والبحرية . أما إسماعيل فقد جعل منه في
عام ١٨٧٢ تسكية للقراء ومسكراً للشرطة . ثم منحة توفيق في عام ١٨٨٤ لجساعة
الفرنسيين الذين قاموا ببناء كنيسة فيها تخليداً للذكرى القديس فرانسيس الأسيسي
Franz von Assisi . راجع على باشا مبارك ، ج ٧ ، ص ٤٣ ؛

Neroutsos Bey, S. 61-65 ; Botti, S. 98 ff. ; Breccia, S.45 f.

١٥- Feridûn, I, 438 (1. Druck), I, 490 (2. Druck) .

Helferich (1565) bei Feyerabend, Reyssbuch S. 396 f. -١٦

De Maillet, Description de l'Egypte... par Le -١٧
Mascrier, Paris, 1735, p. 149 f.

١٨- (للقصود بالاسكندرية الأولى اسكندرية العصرين البطلمى
والرومانى ؛ وبالثانية الاسكندرية الإسلامية التى أقيمت مبانها على أنقاض
الاسكندرية الأولى ؛ وأما الثالثة فهى الاسكندرية فى العصر الإسلامى المتأخر
والى شيدت مبانها من مخلفات الاسكندرية الثانية - المترجمان) .

Description de l'Egypte, 2^e éd., Atlas, Etat -١٩
Moderne. t. II, pl. 84.

٢٠- راجع :

J. Gildemeister, Über arabisches Schiffswesen, in Nachri-
chten der Kgl. Ges. d. w. in Göttingen, vom 28. Juli 1882,
S. 425 - 448.

P. Herzsohen, Der Überfall Alexandrien's durch -٢١
Peter I, König von Jerusalem und Cypern, Bonn 1886.

٢٢- اسمهم von Géorgius J. Capitanovici بخطوطه الإمام ،
فأصدر كتابه : Die Eroberung von Alexandria (Iskandrije)
durch Peter I. von Lusignan, König von Cypern 1365,
Berliner Diss. von 1894. ولم يكن يعرف اللغة العربية ، فاضطر إلى
الاستعانة بتلك النسخة المبتسرة التى قدمها له B. Moritz ، مما أدى إلى انحصار
ما كتب فى نطاق ما أخذه عن الكاتب الآخر .

٢٣- (يترجم النويرى لنفسه فى بعض المواضع من كتابه « الإمام » ،
فإن ذكر - ضمن ما يذكر عن نفسه - أول دخوله الاسكندرية ، وسبب تأليفه

لمكتابه ، وتاريخ البدء فيه والفراغ منه ، فيقول :

د (١٢٠ أ) . . . وكان السبب لتأليف هذا الكتاب ، طول إقامتي
بالاسكندرية ، وبحيتي لها ولأهلها ، فإني دخلتها في ذى الحجة سنة سبع
وثلاثين وسبعمائة ، بسبب زيارة الصالحين ورؤيتها . . . (١٢٠ ب) فأحببتها
حينئذ وسكنتها ، وألفت هذا الكتاب بها ، وابتدأته في جمادى الآخر سنة
سبع وستين وسبعمائة ، إلى فرغت منه في ذى الحجة سنة خمس وسبعين وسبعمائة .
ثم اخترت سكنها أيضاً حباً في المراقبة لقول عبد الله بن عمر - رضى الله
عنها - : د فرض الجهاد لسفك دماء المشركين ، والرباط لحقن دماء المسلمين ؛
وحقن دماء المسلمين أحب إلى من سفك دماء المشركين . . ثم أزددت في
سكنها حباً لقول الشاعر :

| | |
|----------------------------|----------------------------|
| أرى الاسكندرية ذات حسن | يديم ما عليه من مزيد |
| هى الثغر الذى يبدى ابتساما | لتقبيل العفاسة من الوفود |
| إذا وافيتها لم يبق مما | بقلبك منذ تراها من بعيد |
| حللت بظاهرها كآنى | حللت إذا بجهنمات الخلود |
| فلا بشر معطلة وكم قد | رايت هناك من قصر مشيد |
| يباض يملأ الآفاق نوراً | يبشر برقه بسحاب جود |
| فأقسم لو رأتها مصر يوماً | لكاد [ت] أن تغيب عن الوجود |
| وكم قصر بها أضفى كحصن | منيع لا كزرب من جريد |
| يرص فصوصه بانيه رصاً | يفضله على نظم العقود |
| لها سور إذا لاقى الأعادى | يقاهاهم بوجه من حديد |
| هو الفلك استدار بها وكم قد | رأينا فيه من برج سميد |
| أحاط بسورها ببحر أجاج | ومنهل أهلها عذب الورود |
| م السادات لا يرجى وينشى | سوام عند وعد أو وعيد |

لحماني حسنها وكثرة خيرها أن سكنتها ، وتأملت بها ؛ ونسخت لأكابرها
في ساحتها المذيرة ، كتباً كثيرة ؛ ثم خرجت منها مع من خرج من الوقعة
من باب برها - لعدم إلقاء النفس في الهلاك ، لما لم يبق في أهلها للقتال
حركة - ثم رجعت إليها لارى صدفة دورها كيف صار ، بعد فعل الكفرة
بها لما تعدت عليها وجارت ؛ فرأيت ما حير عتلى ، وأذهل لبى ؛ من خراب
بعض أماكنها ، وحريق بعض جوانبها ؛ وجيف البغال والخيول ، وتخير
الحال الذى يورث الذمول ؛ وأما القتل فقد دفنوا قبيل وصولي إليها ، لم
أر غير قبورهم بداخلها ؛ قد دفنوا لغنهم ، وعدم استطاعة جهلهم لتزليهم ؛
فجذبني الغيرة بأسبابها ، ودعيتنى (١٢١) الحية لأرابها ، إلى تأليف هذا
الكتاب بها ؛ ليقف عليه من يأتي من المسلمين بعد عصرنا هذا ليعلموا به
ما اتفق بها فيما مضى من الزمان ، ولتجتهد ملوك مصر الآتية بعد ملوك
عصرنا في حفظها من الفرنج بتكثير القياد بها والتركيز فيها لحراستها ، كفعلى
عمرو بن العاص حين فتحها ؛ فإنه حفظها على طول الزمان ، بقبائل العربان ؛
والله - تعالى - يحفظها في حفظ وسلامه ، إلى يوم القيامة ؛ بمنه وكرمه ليقام
بها دين الإسلام ، على ممر الأيام ،

ويهمنا أن نشر هنا إشارتين ؛ أما الأولى ، فهي حول منشئ الأبيات
المذكورة في نص د النويرى السكندرى ، ، فهو الشاعر المصرى - الذى
ختمت به شعراء الفسطاط - د الجمال أبو الحسين الجزارى يحيى بن عبد العظيم ،
من شعراء القرن السابع الهجرى ؛ انظر ترجمته وطائفة من شعره فى :
ابن سعيد الأندلسى (على بن موسى) ، المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق زكى
محمد حسن وشوقى ضيف وسيدة اسماعيل كاشف ، ص ٢٩٦ - ٣٤٨ ؛ وفى
الأبيات المذكورة هنا ، انظر فيه : ص ٣١٢ - ٣١٣ ؛ وفى المصادر الأخرى
التي تعرضت لترجمته ، راجع فيه : ص ٢٩٦ ، ١٨ .

وأما الإشارة الثانية ، فهي تدور حول ما ذكره د النويرى السكندرى ،

هنا عن تاريخ انتهائه من كتابه «الإمام»، فهو يحدده بشهر ذي الحجة سنة خمس وسبعين وخمسمائة (مايو - يونيو سنة ١٣٧٤ م). ولكن الشواهد تدل بصورة قاطعة على أنه لم ينته من كتابه إلا في سنة ٧٧٧ هـ أو في سنة ٧٧٨ هـ على أقصى تقدير، إذ يسوق «النويري السكندري» نفسه طائفة من النصوص التي تؤيد هذه الشواهد، وليس هناك تفسير لذلك سوى أن يكون قد انتهى من جمع مادته في العام الذي يذكره (وهو سنة ٧٧٥ هـ) كما انتهى من تسجيلها في نفس العام، ثم شرح يدون ما استجد من أحداث حتى عام ٧٧٧ هـ؛ إلا إذا ذهبنا إلى أن ناسخ الكتاب هو الذي أضاف الوقائع المذكورة حتى عام ٧٧٧ هـ. ولكننا نستبعد ذلك من وائبع ملاحظتنا أولاً على أسلوب «النويري السكندري» في سرده للأحداث، إذ أن طريقة العرض التي يتبعها في السرد واحدة؛ وثانياً من واقع أن ناسخ «نسخة دار الكتب» ينص على أنه ينقل مباشرة عن النسخة التي كتبها المؤلف بخط يده، ولو كان ثمة تغيير في خط هذه النسخة - التي ينقل عنها الناسخ - لكان أشار إليها كما هي العادة في مثل هذه الأحوال، فهو يقول في حرد الكتاب (لوحة ٢٩٠ أ) : «وكان الفراغ من كتابته من نسخة بخط مؤلفه رحمه الله... الخ» :

يقول «النويري السكندري» (نسخة المند، لوحة ٢٩٤ أ) : «والم يزول التمازي المذكور (يقصد إبراهيم التمازي رئيس دار الصناعة بالاسكندرية) من أبطال الاسكندرية، إلى أن توفي بها في أواخر جمادى الأولى سنة سبع وسبعين وسبعمائة... الخ». ويقول أيضاً (نسخة دار الكتب، ٢٨٧ أ) : «وفي سنة خمس وسبعين وسبعمائة، بدأ الغشاء من شوال فيها، وتتابع إلى ربيع الأول من سنة ست وسبعين وسبعمائة... الخ». كما يقول (نسخة دار الكتب لوحة ٢٨٤ أ) : «ثم إن ملك الأمراء صلاح الدين ابن عرام أقام أشهراً، وعزل في المحرم سنة خمس وسبعين وسبعمائة، ثم أعيد

إليها - ملك أمراء أيضاً - قد دخلها في ليلة الجمعة تاسع عشر رجب سنة سبع وسبعين وسبعمائة . . . الخ .

ويجدرنا هذا إلى تحديد تاريخ وفاة « النويرى السكندرى » ، وهو تاريخ مجهول حتى الآن ، لم تعرض له المصادر البيبلوجرافية التي ذكرت كتابه « الإلمام » ، (راجع في ذلك : حاجى خليفة (مصطفى بن عبد الله الشهير بكتاب جلي) ، كشف الظنون عن أسامى الكتّاب والفنون ، نشر فلوجل Flugel ، ج ٢ ، ص ١٠٧ : ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين احمد) ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، نشر Krenkow ، ج ٤ ، ص ١٤٢ : السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن) ، الإعـلان بالقويـخ لمن ذم التاريخ ، ص ١٢٢ ، مطبعة الترقى ، دمشق ١٣٤٩ هـ) .

وعما يلغى النظر في هذا الصدد أن بعض المحدثين حددوا تاريخ هذه الوفاة - دون ذكر لما استأنسوا به من مصادر - سنة ١٣٧٣ م المقابلة لسنة ٧٧٤ هـ - ٧٧٥ هـ (راجع : سعيد عبد الفتاح عاشور ، قبرس والحسروب الصليبية ، ص ٨٧ ، القاهرة ١٩٥٧) أو سنة ٧٦٧ هـ (انظر : سمعاد ماهر ، البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، ص ٣٥٤ ، نشر دار المكاتب العربى للطباعة والنشر (بدون تاريخ) ؛ والملاحظ أنها وضعت سنة ١١٦٥ م مقابل السنة الهجرية ٧٦٧ ، بينما يقابلها في الواقع سنة ١٣٦٥ م) . وهذا وهم من د سمعاد ماهر ، إذ أن « النويرى السكندرى » كان لا يزال على قيد الحياة في سنة ٧٦٧ هـ ، ففيها شهد حملة « بطرس لوزنيان » على الاسكندرية ، وفيها شرع في تأليف كتابه ، كما مر بشا من قبل . وأما « سعيد عاشور » ، فيحتمل أنه استنتج تاريخ وفاة « النويرى السكندرى » من النص الذى أوردناه الآن قبل هذا التعليق تأسيساً على أنه انتهى من كتابه في سنة ٧٧٥ هـ .

ومن المرجح - حسباً أوردنا من شواهد تؤيدها نصوص « النويرى السكندرى » ، نفسه - أنه توفي في أواخر عام ٧٧٧ هـ أو أوائل عام ٧٧٨ هـ على

أقصى تقدير . ولستفند في ذلك إلى أنه لو كان حياً بعد أحداث شهر رجب سنة ٧٧٧ هـ (راجع ما أشرنا إليه الآن عن نسخة دار الكتب ، لوحة ٢٨٤ أ) أو بعد استهلال سنة ٧٧٨ هـ ، لكان دون أحداث هذه الفترة قياساً على ما فعل بعد أحداث سنة ٧٧٥ هـ ، وهي السنة التي ذكر من قبل أنه انتهى فيها من كتابه ، والذي أثبتنا - من واقع ما أورده هو نفسه من أحداث - أنه واصل التدوين بعدها - المترجمان) .

٢٤- (تتكون هذه النسخة - في الواقع - من ٢٧١ ورقة ، أو لوحة ، بما في ذلك صفحة العنوان - المترجمان) .

٢٥- من المهم أن نذكر أن الروايات التي ذكرها شهود العيان من المسلمين عن الوقعة قد ساندتها مصدر أساسي مسيحي ، هو كتاب *La prise d'Alexandrie* (نشر ١٨٧٧ ، de Mas Latrie, Genève) ، وهو عبارة عن ديوان شعر كتبه Guillaume de Machaut ، ويضم حوالي ٩٠٠ بيت من الشعر . وقد بدأ Machaut كتابته في عام ١٣٦٩ - وهو في سن الخامسة والثمانين - وأنه في عام ١٣٧٢ أو ١٣٧٣ . ولم يكن Machaut يعرف شيئاً عن الشرق ، كما كانت تنقصه التفاصيل الحقيقية عن الأحداث ، إلا أنه قدم - خلال شعره - دراسات هامة في الموضوع ، إذ كان على اتصال بالمعاصرين من شهدوا الوقعة . ويتفق كل من كتاب الإلام ، وكتاب *La prise d'Alexandrie* - كما صرحت للأحداث - إلى درجة كبيرة فيما أوردها عن الأمور التي جرت في تلك الفترة ؛ ولهذا يمكن لنا الاعتماد عليهما اعتماداً كبيراً .

٢٦- (راجع أحدث ما كتب في الموضوع ويضيف - في نفس الوقت - كشفاً جديداً عن أبواب هذا السور التي لم تكن تقل في هذه الفترة عن نسخة أبواب ، في : السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ، ص ٤٤٤ - ٤٥٣ ، الطبعة الثانية ، الاسكندرية ١٩٦٩ - المترجمان) .

٢٧- ينص ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ٢٨ ، على وجود أربعة من هذه الأبواب .

٢٨- Richard Pococke, Beschreibung des Morgenlandes und einiger anderer Lander..., Erlangen 1754, Bd. I. 6 ff.

٢٩- Gratiem Le Père, Mémoire sur la ville d'Alexandrie, in Description de l'Egypte, Etat Moderne, t. XVIII, 1 (Paris 1826) , S. 415 - 418 .

٣٠- توجد معظم هذه الخرائط في :

Atlas Historique de la Ville et des Ports d'Alexandrie, par Gaston Jondet (Mémoires présentés à la Société Sultanieh de Geographie, t. II) , Le Caire 1921 .

٣١- الخطة الجديدة ... ، بولاق ١٣٠٥ هـ ، ج ٧ ، ص ٣٥ .

٣٢- (راجع تحقيق هذه التسمية ونقدها في : السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٤٤٨ - ٤٥٠ : المترجمان) .

٣٣- Atlas Historique, pl. XLVII .

٣٤- (جاء في الإسلام ، : د (١٩٤) ... أن السلطان صالح بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور (جاء في الأصل : محمد بن الملك الناصر ، وهو خطأ) قلاون سلطان الديار المصرية والشامية وغيرهما - منع دواوين النصاري الذين في سنة خمس وخمسين وسبعائة من الديونة ، وأن أحدا منهم لا يكتب بديوان إلا إن أسلم ، ومن بقي على نصرانيته يلبس خشن الثياب ، وأن تقصر أكامهم وأذيالهم ونصف عمامتهم ، ويركبوا الخمر على شق واحد ، وكذلك سائر النصاري الذين ، فامثل ذلك ... (٩٤ ب) ... فصارت الفرنج بالاسكندرية ... يرفعون بضائعهم وأثاثهم إلى المراكب بسرعة وسافروا ، أخبروا النصاري الرومانية بما فعلته المسلمون بأهل النصرانية . فكان ذلك - والله أعلم - سبباً لطبعان القبرص وطوافه بأرض الرومانية ... الخ - المترجمان) .

٣٥- راجع :

de Mas Latrie, Histoire de l'île de Chypre, II, 224, note 2.

٣٦- ﴿ جاء في الإسلام : د (٩٤ ب) . . كما قيل - والله أعلم - أن بطرس ، صاحب قبرس لعنه الله ، لما ولي الملك بعد هلاك أبيه ريوك ، أرسل إلى السلطان الملك الناصر حسن يسأله أن يرسم له بالتوجيه إلى بلد صور - بساحل الشام - ليجلس على عمود بها كمادة كل من تملك قبرس ، (٩٥ أ) لأنه لا يتم له ملكها - بزعمهم - إلا بالجلوس على ذلك العمود أو مكان يختص بجلوس الملك فيه ، فيتم له بذلك الملك ويصح له ففاد حكمه في رعيته . فاحتقره السلطان ، ومنعه الدخول إلى بلد صور ، فكان ذلك - والله أعلم - سبباً لغزوه الاسكندرية - المترجمان ﴾ .

٣٧- ﴿ الغراب - والجمع أغربة وغربان - نوع من المراكب الحربية التي تستعمل في الغارة والغزو عن طريق البحر ، يصفها النويري - صاحب الإسلام - نفسه ، فيقول : د والمراكب الغزوانية تسمى غرباناً ، وذلك لرفنها وطولها وسوادها بالأظلية المانعة للماء عنها كالرفس وغبره ، فصارت تشبه سوادها الغربان اسوادها وسواء منافقها . . ويضيف النويري : د ويقال للغربان أيضاً شواني ، واحداً شني ؛ ويقال لها أجفان ، واحداً جفن ويمود ليؤكد تعريفها بمعنى شني فيقول : د ... ذكر أن جماعة من كراسلة (أى قراصة) الفرنج الأعزاب ، لم يملكوا من الشواني غير غراب . . . الخ ؛ انظر على التوالي : (١٢٣ أ) و (١٢٤ أ) من نسخة برلين ، (١٥٢) من نسخة الهند - المترجمان ﴾ .

٣٨- ﴿ جاء في الإسلام : (١٥٥) . . . أنه أتى إلى مدينة الاسكندرية في شوال سنة خمس وخمسين [وسبع مائة] غراب فيه كراسلة - أى اصوص من الافرنج - تشوش ميعتها ، وتخطف ما تقدّر على خطفه . فصار الغراب المذكور يدور من مدينة الاسكندرية الغربية إلى ميعتها الشرقية ، فرأى مركباً

أتت من جهة المينة الغربية قدمت إلى الاسكندرية من بر التركية ، فيها تجار المسلمين ومتاجرهم ، فهاجها الغراب المذكور وحاربها ، فخاربتة وقتلته ، فلم يقدر عليها لعلو سمكها وخروج رماة المسلمين في القوارب من الساحل لحمايتها منه ، وموا عليه سهامهم بقسى الجرخ التي معهم ، فسلمت منه ، ودخلت بحر السلسلة أرسست بشاطئه بالقرب من الباب الأخضر . فصار الغراب المذكور يحول يمينا وشمالا ، فأرسل إليه الأمير سيف الدين بلاط - نائب السلطنة بالاسكندرية ، بإشارة تاج الدين موسى الخازن ناظرها - قناصلة الفدرنج المقيمين بها يستخبرونه عن أمره وما سبب جولانه بالمينتين ، فرجعوا في القارب الذي ركبه إليهم أخبروهما عنهم أنهم يريدون ما يأكلون ويشربون ويرتحلون ، فأرسلوا لهم ما كولا وقرب الماء . . . ثم لأنهم نظروا مركباً قدمت من الشام ، فوثبوا عليها أخذوها بما فيها من البضائع ، ورموا رجالها بمينة بوفير ، ومضوا بها . . . ولما بلغ الملك الفاصر حسن خبر الغراب المذكور . . . (٩٥ ب) . . . أرسل الأمير سيف الدين بكتمر - الشهير بالوشاق - إلى الاسكندرية كاشفا . لحضر ونزل بدار العدل المجاورة لبنت المال - وهي التي كان بناها أيام ولايته بها - فكتشف عن الخسر . . . ثم لأن صاحب قبرس أتاه خبر الغراب المذكور وما فعله بمينتي الاسكندرية - مع ما أطعم وسقى - ولم يخرج له أحد حاربه ولا قاتله ، طمع فيها . . . الخ - .

لترجمان .

٣٩- (جاء في الإلنام ، د (٩٥ ب) . . . السبب الرابع ، أن غراباً هجم على الجزيرة المقابلة لرشيد ، أخذ منها من المسلمين خمسة وعشرين نفرأ ما بين رجال ونساء . . . (٩٦ أ) . . . ثم إن القبرسى لما بلغه خبر الغراب وما فعل به جزيرة رشيد من أخذه الأسارى منها ، فطمع في الاسكندرية وعمل عليها حتى ظفر بها . . . السبب الخامس ، أن ثلاثة أغربة أنوا إلى مينة بوفير وقت الفجر سابع عشرين شعبان سنة أربع وستين وسبعائة ، أخذوا من قصور البساتين ستة وستين نفساً من المسلمين ما بين

رجال (٩٦ ب) ونساء وصبيان وإناث ، ومضوا بهم إلى ساحل صيدا بالشام ، افتدتهم منهم المسلمون ، ورجعوا الجميع إلى أوطانهم ببوقير . . . فلما بلغ القبرسى فعلهم ذلك ببوقير ، ولم يجد أحد من الأهل في وجوههم سيفاً واحداً ، طمع في الاسكندرية . السبب السادس ، أنه أتى إلى جهة بوقير ستة غربان جروا في البحر ليلاً جرياً مفسوداً لعدم جأوسهم الذي يكون في البر يقدم لهم ناراً في الليل يقصدون جهتها ، فسمعت الصيادون الذين يصيدون السمك في الليل داخل البحر في قواربهم حسن جندف تلك الغربان ، فأخذوا حذرهم منهم ، فضت الغربان بحريهم المفسود إلى بلد رشيد . وكان حريهم أولاً بقتلهم وجندفهم لبوقير ، فلما انفسد بهم الجري إلى رشيد ، نزل جماعة من الفرنج من ثلاثة أغربة ، ففطنت بهم المسلمون ، فأنوهم بكثرة عددهم وعددهم ، فهربت الفرنج منهم طالبين غراباً من الثلاثة ، فسبقهم أحمد الجداوى - المعروف بالباشق - إلى سقالة الغراب رماها (في) البحر ، فترامت الفرنج (في) البحر لهربوا إلى الغراب عند نيريز الغراب بمن بقي فيه داخل البحر خوفاً من سهام المسلمين الذين أتوهم بهرعون ، غرقوا كلهم لنقل الحديد الذي عليهم ، منهم العموم إلى الغراب المذكور ، فقتلهم البحر بعد أيام إلى الساحل ، فكان عدتهم ثمانين رجلاً . . - المترجمان) .

٤٠ - (أورد النويري - في غير هذا الموضع - تفاصيل مقتلة البنادقة ، انظر : نسخة الهند من د الإسلام ، (١٣٧ ب - ١٣٨ أ) - المترجمان) .

٤١ - (جاء في د الإسلام ، : د (٩٦ ب) . . السبب السابع ، ما فعلته عوام المسلمين بالاسكندرية بقتلهم (من) بها (من) الفرنج البنادقة . فلما هم القبرسى بالعبارة على الاسكندرية ، أعانته البنادقة بسبب قتل المسلمين لأصحابهم بالاسكندرية . . - المترجمان) .

٤٢ - استغرق هذه الاستعدادات من الفرنج حوالى أربع سنين (راجع ما جاء هنا بالحاشية رقم (٥٢) - المترجمان) .

٤٣- كان الجيش المملوكي يمسك في ذلك الوقت بالقاهرة . وكان حاكم الاسكندرية حينئذ يطلق عليه أمير طبائخاناه ، أى أمير أربعين ممن يكونون حرساً خاصاً به ، ومن المرجح أنه كان قد اصطحبهم في رحلته إلى الحج . ومن المرجح أيضاً أنه لم يكن يوجد بالاسكندرية حين الوقعة جندي واحد من المماليك . وعندما وصلت أخبار الوقعة إلى القاهرة ، أنفذ الأتابك يلبغا - بالاتفاق مع السلطان - جيشاً برياً مكوناً من ألف جندي من المماليك إلى الاسكندرية التي وجدوها قد دخلت من الفرنج عند وصولهم (راجع ما جاء هنا بالحاشية رقم (١٣٠) - المترجمان) وبعد الوقعة ، عين أمير مقدم ألف حاكمًا للاسكندرية ؛ والأمير مقدم ألف قد يعنى أيضاً أمير مقدم مائة ، ويصبح مقدم ألف في الحالات الضرورية .

١- كان كتاب السلوك للمقريزي لم يتم إخراجُه بعد في طبعة كاملة (مصدر منه حتى الآن جزءان في ستة أقسام ، حققهما الدكتور محمد مصطفى زيادة ، وبقية الكتاب لا يزال مخطوطاً - المترجمان) ، فتجد الإشارة هنا إلى مأساة ابن إياس في حوادث سنة ٧٦٧ هـ - حسبما جاء في نسخة فاتح ، رقم ٤٢٠٠ ، ورقة ٥٨ أ وما بعدها ؛ وفي طبعة بولاق ، ج ١ ، ص ٢١٤ وما بعدها - إذ يرد هنا إشارة مقتضبة عن الوقعة .

(انظر شرحاً وافياً عن المصطلحين : أمير طبائخاناه ، ومقدم ألف ، في : حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، ج ١ ، ص ٢٣١ - ٢٣٦ ؛ ج ٣ ، ص ١١٢٧ - ١١٢٨ (على التوالي) ، القاهرة ١٩٦٥ و ١٩٦٦ - المترجمان) .

٤٤- تطلق هذه التسمية على كل المنطقة الموجودة شمالي سور الاسكندرية ، والتي تضم جزيرة فاروس واللسان الذي تم توصيله بالمدينة ، وهي المنطقة التي كانت تكون اللسان القديم Heptastadion .

(راجع مزيداً من الشروح عن هذه المنطقة في : السيد عبد العزيز سالم ،

المرجع السابق ، ص ٢٠ - المترجمان .

٤٥- ﴿ الجرخ - والجمع جروح - : نوع من القوس الرامى الذى ترمى عنه النشاب والنفط : انظر :

Dozy, Supplément aux Dictionnaires Arabes, t. I, p. 182, 2ème Edition, Leide - Paris 1907 وهو واحد الأنواع الذى يقابله بالانجليزية لفظ Crossbow وبالفرنسية Arbalète. انظر أيضاً : الحسن بن عبد الله ، آثار الاول فى ترتيب الدول ، ص ١٦٠ ، مطبعة بولاق ، ١٢٩٥ هـ ، فهو يذكر الاقوام الذين يعانون قسى الجرخ ، كما يشير إلى دواعى استعمالها . راجع كذلك شروح الذكور جمال الدين الشيبان على هذا النوع من الاقواس فى : جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، مفرج السكروب فى أخبار بنى أيوب ، ج ٢ ، ص ١٥٠ ، ٣٨٠ و ص ٢٤٤ ، ٤٨ ، القاهرة ١٩٥٧ م . ولمعرفة أسلوب توثيق هذا النوع من الاقواس ، أو المعروفة بصفة عامة باسم Crossbows ، انظر :

Charles H. Ashdown, Armour and Weapons in the Middle Ages, pp. 85-7, Figs. 71, 73, London 1925 .
المترجمان .

٤٦- ﴿ المزارق - والجمع مزاريق - هو الرمح القصير ، راجع القاموس . وهو د أخف من المعنزة ، كما ورد فى : نعيان ثابت ، الجندية فى الدولة العباسية ، ص ١٨٤ ، بغداد ١٩٣٩ ؛ قارن ما جاء هنا بالحاشية رقم (١٠٧) . وقد وصفه على بن عبد الرحمن بن هذيل الاندلسى ، حلية الفرسان وشعار الشجعان ، تحقيق محمد عبد الغنى حسن ، ص ٢٠٢ ، طبعة دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٥١ ، وصفه فقال : د والمزارق كذلك لأنه يرمى به للطائفة عصاه ، وقد يكون صفاته مربعا لطيفا لحرق الدروع وشبه ذلك . انظر أيضاً : Dozy, Supp. aux Dict. Arabes, I, p. 588 . المترجمان ﴿

٤٧- (الدقة - والجمع درق - : إترس الدائر ، وتمنع من الجلود خاصة ؛ انظر : ابن هذيل ، حلية الفرسان ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ و ١٨٠ ، ص ٢٣٢ - المترجمان) .

٤٨- (الصفحة - والجمع صفاح - من الأسماء التي يوصف بها السيف إذا كان عربيا ؛ انظر : ابن هذيل ، ص ١٩١ - المترجمان) .

٤٩- (الزرد ؛ الدرغ المزروعة : أي المكونة من حلقات من المعدن يتداخل بعضها في بعض في الأساق وتراصف ، فهي : زرد نصيد ؛ انظر : Dozy, Supp. Dict. Arabes, I, pp. 584-85 - المترجمان) .

٥٠- (النفط ، جاء في : Dozy, Supp. Dict. Arabes, II, pp. 703-4 ، أن النفط نوع من المواد الدهنية سريعة الاحتراق ، وقد يطلق اللفظ أيضا على نفس الآلة التي يزرع منها النفط ، - المترجمان) .

٥١- (لتحديد موقع تربة طفيصة ، راجع : السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٣٢٣ - المترجمان) .

٥٢- (جاء في دالامام : : د (١٩٧) . . . ثم إن القسبرسي لما قصد غزو الاسكندرية ، استنجد بملوك النصارى بإشارة الباب (البابا) لهم في ذلك . . . فلما أعانت ملوك النصارى صاحب قسبرس بالمال والرجال والغربان - بإشارة الباب لهم في ذلك - فعمرت المراكب ، على حاقيل ، برودس ، لأنها دار صناعة الفرج ، فكانت عمارتها - على ما قيل - في أربع سنين ، وذلك في مدة طوافه على الملوك . . . وكانت الأخبار تأتي إلى الاسكندرية بأن العمارة عند القسبرسي ، فاستهم نائب السلطان بها - وهو الأمير زين الدين خالد - فرفع دورها القصير من جهة البصاب الأخضر ، وصار يحتمل في العمارة ، ويرتل يطلب من الأمير يلبقا الخناسكي - مقدم الجيوش المنصورة - الإعانة على عمارة الدور ، ويعلمه بخبر عمارة القسري

للمراكب الحربية . . . (١٩٨) . . . وكان الخبر بأنى الى القبرسى بجزيرة قبرس أن الاسكندرية بها طوائف قاعات يبيتون بساحل مينتها ، لم يعرفوا الحرب ولا باشره أبداً ، بل يخرجون منها إلى البحر يحرسون ، وكلهم بملبوسهم متزيّنون . . . فلما علم القبرس حالهم طمع فيهم (١١٠١) . . . [وأما] نائب السلطان بنصر الاسكندرية - وهو الأمير خليل صلاح الدين ابن عرام - [فـ] كان غائباً عن الناصر المذكور بالحجاز الشريف بسبب الحج . وكان غائباً عنه في مدة غيبته - بإشارة الأتابك يلبغا الخاسكى - أمير يسمى جنغرا . فلما دخل جنغرا المذكور الاسكندرية ، رأى طوائفها المتطوعة الحارسة لمينتها تنجر عليه بالجزيرة بقسيم الجرخ المورة ، وأعلامهم الحزير المذنب-ورة ، مع ما بأيديهم من المساريق ، والرماح ، والصفاح ، والزرد النضيد ، ومصفحات الحديد ، والنفط الطيار الصاعد منه لطلب النار ، وهم بملبوسهم المختلف الألوان ، كالزهر في البستان . . . فأقام جنغرا بالاسكندرية من شوال سنة سبع وسعين وسبعمائة إلى شهر المحرم ينظر لذلك الطوائف التي اسكل طائفة منها ليلة في الأسبوع تبيت تحرس ساحل المينة . وربما بات (جنغرا) ليالى في الغرفة التي على باب مسجد تربة الأمير طغية ، ويقدم قداده فانوسين أكثرين مقابل باب للمسجد المذكور ، وتأتى طائفة الزرافين يطافون النفط ؛ وهو ينظر من طيقتان الغرفة المذكورة إلى الشرار الطيار ، واللواب التي تدور بألوان النار ؛ من الخضرة والصفرة ، والبياض والجره ؛ فيحصل له بذلك الانشراح ، من العشى إلى الصباح ؛ ويفتجج أيضاً بنظره إلى كثرة الخلائق المنتشرة على الساحل من الرماة والعوام وقد نصبت لهم سوق فيه من أصناف المأكول يشتمون منه ويأكلون ، ومن الروايا والقرب التي تحمل من البلد لايهم يشربون . فإذا أصبحوا ، انتظمت الطائفة التي باتت تحرس ، ودخلت (ت) البلد ، في همه وجلد ، وكثرة مدد ؛ فتجتمع لدخولهم الرجال والنسوان ، ينظرون لأقوام كزهريستان ؛ من حسن الملابس ، وبياض تلك الأطلال ؛ فتزغر (د) ن لهم النسوان . . . الخ ، - المترجمان .

٥٣- سد الباب الأخضر بعد هذه الغارة بالجبل والاحجار ، ثم أعيد فتحه في ولاية الأمير سيف الدين (لاكر الاسكندرية ، فركبت عليه أبوابه الثلاثة .

(جاء في د الإسلام ، : د (١٠١ ب) : . . . : فبينما هم كذلك . . . إذ دهمهم صاحب قبرص اللعين . . . وذلك في يوم الجمعة الثاني والعشرين من المحرم سنة سبع وستين وسبعمائة ، والنيل منتشر على البلاد ؛ قصد المملعون - بإتيانهم في ذلك الزمن لتتعلق النجدة من مصر ابعد الطريق من الجبل ، فنال الخبيث قصده في ذلك اليوم والذي بعده ، وتحصن - قبل إتيان النجدة - بمراكبه . . . (١٠٢ أ) . . . وذلك أنه لما كان يوم الأربعاء العشرين من المحرم سنة سبع وستين وسبعمائة ، ظهر في البحر مراكب مغربة ومشقة ، زعم أهل الاسكندرية أنهم تجار البنادقة ينتظرونهم يأتون بمحتاجهم على جاري هادتهم في كل سنة . وكانت تجار المسلمين جابوا لهم من اللين أصناف البهار يبيعونها عليهم ويقومون عنها من متاجرهم . فلما لم يدخلوا الميناء ، بائت الناس في خوف شديد بسببهم . فلما أصبح يوم الخميس ، أقبلت المراكب الكثيرة طالبة ساحل الجزيرة . . . إلى أن حطت قلاعها ببحر السلطنة وذلك من جهة الباب الأخضر ، المسدود بعد الوقعة بالجبل والحجر ، ثم فتح بعد ذلك وركبت عليه أبوابه الأولى والثاني والثالث المتجددة ، وذلك في يوم الوقعة سنة سبع وستين وسبعمائة في ولاية الأمير (لاكر بالاسكندرية . . . الخ - المترجمان) .

٥٤- (القميرة : أداة لجس الأعماق في البحر - المترجمان) .

٥٥- (جاء في د الإسلام ، : د (١٠٢ أ) . . . ولما أرسلت المراكب الحربية ببحر السلطنة مبرزة عن الساحل ، اهتدت أهل الاسكندرية للقتال ، والحرب والنزال ؛ فتعمرت القلاع التي من جهة البحر بالجزيرة ، بالرماة الكثيره ؛ وانتشرت الناس على السور ، وصار برماة الجرخ معمور ؛ فخرج من مراكب الفرنج قارب بحس المينة بقميرة ، فرمت المسلمون عليه بالسهام .

فولى غاربا حتى إصق بالمرالكب فلبا كان بعد الغروب ، وقعدت الفوانيس على السور ، فضاء السور بالنور . . . الخ ، - المترجمان - .

٥٦- ﴿ جاء في الإسلام : : د (١٠٢ ب) . . . فلما كان بعد طلوع الشمس من يوم الجمعة ، انفشر على الساحل بالجزيرة خلق من المسلمين كثيرة . . . وكانت الباعة خرجوا من البلد بطبايعهم وفردوزهم ودسوتهم ملائكة بالعمام ، يبيعونها على من بالجزيرة من الخالص والعمام ، وذلك من ليلة الخميس ، ليكسبوا معاشهم . . . فلما كان قبل (طلوع) الشمس من يوم (١٠٣ أ) الجمعة أقبلت العربان . . . فصاروا يتطاردون على خيولهم . . . وتلك العربان من كثرتهم خارجين من الباب الاخير فصاروا في الجزيرة . . - المترجمان - .

٥٧- ﴿ جاء في الإسلام : : د (١٠٣ أ) . . . فقال أحد نجار المغاربة وغيره للامير جنغرا : هذا عدد ثقل . . . وللصاحبة دخولهم (أى الناس) المدينة ، يتحصنون بأسوارها الحصينة ، ويقفون من خلف الأسوار . . إلى أن تصل من مصر نجدة . . - المترجمان - .

٥٨- احتل Filippo Doria الجنوى مدينة طرابلس في عام ١٣٥٤ ؛
راجع : E. J. IV. 883.

٥٩- ﴿ جاء في الإسلام : : د (١٠٣ أ) . . . فقال له (أى الجنغرا) من له رباط بالجزيرة . . . قد انصرف على بنائه ألوف كثيرة ؛ بنيت بين مقابر الاموات ، لميت طوائف القاطات : : د ما ترك هؤلاء الفرنج الذين كل منهم رجل مقامر ، يطأون بأرجلهم تراب المقابر ، قالوا ذلك خوفا على أربطهم تخربها الفرنج إذا نزلوا الجزيرة ، بجمعهم الكثيرة . . . فقال عبد الله - العاجر المغربي - لجنغرا : د دخول المسلمين البلد أصح لهم . . . فقالت أرباب الربط : د أنهم يا مغاربة أخرجتم بلدكم طرابلس بأخذ الفسرنج (لها) ، وتريدون أن

تخربوا ربط المسلمين بدخول المسلمين البلد ؟ لا كيد (لكم) ولا كرامة ،
بل تمنعهم النزول من المراكب ، ونذيقهم بالسهم العذاب الواصب . . .
(١٠٣ ب) . . . فكان جواب جنفرا لعبد الله - التاجر المذكور - :
« لست أترك أحداً من الفرنج يصل إلى الساحل ، ولو قطعت في الأوداج
ونفذت المقاتل . . . الخ » - المترجمان .

٦٠- يقدر Guillaume de Machaut عدد هؤلاء المغاربة بما يقارب
العشرين ألفا . راجع : Vs. 2220 ff.

(من المؤكد أن المقصود هو المغاربة الذين كانوا ينزلون الاسكندرية -
المترجمان) .

٦١- (الزرافون - والمفسرد زراق - : هم الذين يرمون النفط من
الزرافة ، وهي أنبوبة خاصة يزرق بها النفط ؛ راجع :
Dozy, Supp. Dict. Arabes, I, pp. 587-88 - المترجمان) .

٦٢- (جاء في الإسلام : (١٠٣ ب) . . . ثم إن الفرنج صاروا
يمراكبهم ينظرون أحوال الناس ، فلم يروا إلا من هو عار من اللباس ،
فطمعوا فيهم ، وزحفوا بغراب المقدمة إليهم ، فنزلت إليه طائفة من المغاربة
حائضين في الماء ، ناوشوا من فيه القتال والحرب والنزال ، ومسكوا الغراب
بأيديهم ، وطلبوا من الزرافين للنار ليحرقوه ، فلم يأت أحد بشرارة
(نفط) ، وذلك لقلة همهم وتهاونهم وغفلتهم ، فاستعجلوهم بالنار ،
فرموا بمدفع فيه نار كنار الحلفاء ، فوقع في الماء فانطلقا . ثم إن المغاربة
وأصحاب الغراب ضربوا بعضهم بعضا بالسيوف إلى أن قتلت المغاربة في تلك
المحاربة . فحينئذ دخل الغراب الساحل ، وتبعه آخر كان يرمى بالسهم ، فلمّا
دخل البر ، تابعت الغرابان داخلة من أماكن متفرقة ، فنزلت الفرنج سريعا
من مراكبها بجيها ورجلها وقت الضحى نهار يوم الجمعة إلى البر ، فرمت

الخيالة (على) المسلمين بالسهم ، تقدمهم أصحاب الدرق والسيوف مشاة على الأقدام . . . الخ ، - المترجمان) .

٦٣- جاء في الإمام : د (١٠٣ ب) . . . وكانت الفرنج مسربة بالزرد النضيد ، متجلببة بصفايح الحديد ؛ على رؤسهم الخوذ اللامعة ، وبأيديهم السيوف القاطعة ؛ قد تشكروا القسي الموتورة ، ورفعوا أعلام الصليبان المنشورة ؛ وصاروا يرمون على المسلمين فارتشقت سهامهم في أهل الإيخان ، وفي خيول العربان ، فهجفت بهم تلك الخيول في كل جهة ومكان ؛ فانهمزوا إلى ناحية السور ، فصار جيش المسلمين جهنمة العربان مكسور ؛ ولا هادوا قابلوا الفرنج (١٠٤ أ) الكلاب ، بل دخلوا غائرين من الأبواب ؛ وكانت الفرنج لا بسين الحديد من الفرق إلى التقدم ، والمسلمون كلحم على وضئ ؛ فكيف يقاتل اللحم الحديد ، وكيف يبرز العاري لمن كسى الزره النضيد . . . ثم إن أهل الاسكندرية لما رأوا ما لم يعمدوه . . . وجفت منهم القلوب . . . فتزاحروا في الأبواب بعضهم على بعض . . . الخ ، - المترجمان) .

٦٤- وقف قاعة القرافة هذه الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن سلام . وهي تقع - فيما يبدو - قريباً من الجامع الغربي الذي قام ابن سلام بتوقيف الحصر له . وهذه القاعة لا تبعد كثيراً عن باب الخوخة الذي يعرف أيضاً بباب القرافة (راجع الحاشية رقم (٣٢) - المترجمان) . وقد استخدمت هذه القاعة كمكان لاجتماع المتطوعة من الرماة ، كما كان يحفظ بها أسلحتهم وعددهم وأعلامهم وبنودهم وسائر معداتهم الحربية . وكانت العلاقة بين هؤلاء المتطوعة تقسم بسمة الأخوة ذات الصبغة شبه الدينية . وكان رماة المتطوعة يتجمعون في هذه القاعة حيث يراقدون ملابسهم ، ويسلحون أنفسهم بالأسلحة اللازمة ، ويخرجون منها ليلاً في جهاعات معينة ويتوجهون إلى الجزيرة للقيام بنوبات الحراسة . وقبل وقوع الغارة بمدة سنة ، قام ابن سلام ببناء رباط لجماعة الرماة المتطوعة هذه حيث كانوا ينامون فيه ويقومون صلواتهم وحلقات الذكر . وذكر أنه صرف على هذا الرباط ثمانمائة

دينار ، وأنه أعاد بناءه كما كان عليه الحال من قبل في عام ١٣٦٩/٧٧١ بمسند أن
خربته عساكر الفرنج ، فيما عدا سقف الايوان ، فقد أبقى هذا السقف بالحجارة
بدلاً من الخشب حتى لا يصير للنار فيه عمل إن حدث أمر مثل ذلك .

٦٥- ﴿ جاء في الإسلام ، : (١٠٤) . . . وذلك أن جماعة من
رماة قاعة القرافة (١٠٤ ب) المنطوعة لما حوصروا في الرباط - الذي عمره
لهم الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن سلام خارج باب البحر بالجزيرة
بسبب حبسهم فيه وصلواتهم وذكرهم ليلة خروج طائفتهم تباط به ، وكان
بناؤه قبل الوقعة بما يريد على سنة ؛ قيل لأنه أنصرف على عمارته ثمانمائة
دينار - فلما تكررت الفرنج حول الرباط ، صارت رماة المسلمين في أعلاه
يرمون على الفرنج بسهامهم ، فقتلوا من الفرنج جماعة . فلما نفذت سهامهم ،
عمدوا إلى شرفات الرباط صاروا يهدمونها ويرمون الفرنج بأحجارها إلى أن
نفذت حجارة الشرايف منهم ، فأنقطع رميهم : فكسرت الفرنج شجراً بيلك
الرباط المذكور ، وصعدوا إليه . فلما صارت الفرنج معهم ، صاحوا
بأجمعهم : « يا محمد » ، وصيحوا ، فلم يسمع لهم بعد ذلك صوت . أخبر
عنهم بذلك عبد الله بن الفقيه أبي بكر - قديم مسجد القشعيرى - كان مختفياً
بصهرنج الرباط المذكور فذهبهم الفرنج عن آخرهم . . . قال المؤلف . . . :
حدثني الشيخ الصالح أحمد بن النشائي - شيخ رماة قاعة القرافة بالاسكندرية
قال : حدثني محمد الخطاط - بعد قدومه من مدينة قبرس مع من حضر من
أسارى الاسكندرية الراجعين إليها منها - قال : كنت مع رماة المسلمين على
سطح رباط ابن سلام حين صعدت الفرنج إليها ، صاروا يذبحون الرماة
وأنا اضطرب من الخوف ، فتركوني حياً أعضر سنى . وأما حسين البيضاغ ،
فإنه لما قصدوا ذبحه (١٠٥) ضحك لهم ، فضحكوا الضحكة وقالوا :
اتركوه ، لأنه ضحك موضع الخوف . قال : فأمرنا الاثنين . . . الخ -
المترجمان .

٦٦- أشار خليل الظاهري إلى دار السلطان هذه ، فذكر أن صلاح الدين بنائها ، ثم جددوها الناصر فرج بن برقوق (١٣٩٨ - ١٤٠٥) فأزال ما أصابها من زلف من جراء الوقعة . وكانت دار السلطان تعد في زمن خليل الظاهري إحدى التحف الفنية العالمية ، وهو يحدد موقعها فيذكر أنها كانت تطل على البحر مباشرة . ومن المرجح أنها كانت تقع على السور الغربي الذي كان يصل - وقتئذ - إلى الميناء الغربي . وغالباً ما كانت الدار لا تفتح فتظل مغلقة . وقد صرح السلطان الأشرف سيف الدين برسباي لصهره خليل الظاهري بسكنى هذه الدار عندما أصبح الأخير حاكماً للاسكندرية في عام ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ - ١٤٣٧ م .

﴿ والمعروفة المزيد من التفاصيل عن هذه الدار ، راجع : السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٤٨٥ - المترجمان ﴾ .

٦٧- ﴿ جاء في «الإمام» : د (١٠٥ ب) ... وذلك أن الأمير جنغرا ... لما رأى الناس فروا من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وشماله بلذع سهام الفرنج ، والتذع هو أيضاً بها ، وسال دمه من نصالها ، ندم على مخالفته لقول القائل له : « ادخل بالذئاس (المدينة) ليحصنوا بأسوارها الحصينة » ... ثم إن جنغرا قصد ناحية المطرق المحاذي لدار السلطان - غربي الاسكندرية - من ظاهر سورها - خائضاً بفرسه في الماء ومن تبعه من المسلمين ، فدخل الاسكندرية من باب الخوخة ، فأنى بيت المال ، أخذ ما كان فيه من الذهب والفضة ، أخرجهما من باب البر ... الخ » - المترجمان ﴾ .

٦٨- ﴿ جاء في «الإمام» : د (١٠٥ ب) ... وأمر - أي الأمير - جنغرا - بتجار الفرنج وفناصلتهم ، وكانوا نحو خمسين بالاسكندرية مقبضين ، أخرجهم من باب البر ، ووجههم إلى ناحية دمنهور بعد أن امتنعوا عن الخروج مع الجبلية المرممين عليهم . فعند ذلك ضرب أحمد الجبلية عنق افرنجي منهم بسيفه . فحين رأوا ذلك ، خافوا أن تضرب أعناقهم ، فأذعنوا بالخروج سرعة ، فخرجت الجبلية بهم مسلسلين إلى جهة دمنهور . وكان

خروجهم بهم حين انضمام العدو إلى القرب من السور ، فرمهم المسلمون من أعلى السور بالسهام ، فلم يقدروا على الوصول إليه . . . » المترجمان .

٦٨- (ما بين الحاصرين لم يرد في الترجمة عن نسخة برلين ، فالعبارة ساقطة في تلك النسخة ، وما هنا إضافة عن نسخة الهند رأينا إيمانها زيادة في توضيح وصف هذه السلاسل المترجمان .)

٦٩- (التوسيط ، هو ضرب الرجل في وسطه بالسيف فينشط قطعتين . . . المترجمان .)

٧٠- (جاء في الإسلام : ما (١٠٥ ب) . . . ثم إن الفرنج عمدوا إلى بنية خشب ملاؤها حريقاً وصعدوا بها حرق باب البحر بكركرتها بأصعة الرماح . فتقاعبت عليهم السهام من أعلى السور ، فقتل من الفرنج جماعة . فخرجوا في أسرم ماذا يفهمونه ؟ فنكروا البنية فقد نازا بعيداً عن الباب ، ورجعوا إلى ناحية المينة الشرقية . ونظروا فلم يجدوا على السور من تلك الجهة أحداً ، ولا ثم خندقاً يمنع من العودة إلى السور ، فدرجوا إلى جهة باب الديوان أحرقوه ، ودخلوا (منه) مع ما نصبوا هناك من السلاسل الخشب المفصلة صعدوا عليها السور . فلما رأتهم المسلمون الذين على السور من بعد قد صعدوا وبينهم وبين الفرنج نلعة عالية غير نافذة إليهم ، شردوا طابئين النجاة منهم لكثرتهم ، ولحقهم بأن الفرنج ملكك البلد . فقتل من المسلمين من أدركته الفرنج ، وسلم منهم من خرج من أبواب البر . فليكن (١٠٦ أ) السور الذي إلى البحر جميعه معمرا بالرجال من جهة الديوان والصناعة ، سلبت منهم الاسكندرية . وإنما قال شمس الدين بن غراب . كاتب الديوان . وشمس الدين بن أبي عذبة . الناظر . . . د غلقوا باب الديوان الذي إلى البلد لئلا تنقل التجار بضائعها منه إلى البلد فتضيع الحقوق عليها . ، فقتل الباب . لذلك امتنعت الرماة من تلك الجهة من السور ، فبذلك رأى العدو جهة خالية دخل البلد منها . وقيل أيضاً إن ابن غراب . المذكور . كان متعاملاً مع

صاحب قبرس عليا مروان صاحب قبرس أتماها قبل الواقعة في زى تاجر
أواه ابن غراب - المذكور - (عنده) مدة . فصار القسبرسى يتمشى بالبلد
من جملة الفرنج - بالى (كانوا) بها تجاراً - وهو يكيفها ، وينظر أحوال
الناس بها . فلما علم ذلك بعد الواقعة ، وسط الأمير صلاح الدين بن عرام -
بعد قدومه من الحججاز - شمس الدين بن غراب - المذكور - وعلقه قطعتين
على باب رشيد . فلما فتح باب الديوان الذى إلى البلد ، قاتلت المسلمون الفرنج
من أعلى سورته ، ووجدوا ما يقوتهم بالأكل من ثقل الشام ، وكانت أصحاب
البضائع تحرسها ويطعمون منها المجاهدين . فلما لم يكن إلا هرجة جفرا رأى
صائب ، وقفل ابن غراب والمظفر لى باب الديوان ، أخذت الفرنج البلد منه .
وفدت المقادير من كل كبر ، من أهل الثغر وصغير ، فمنهم من قتل ، ومنهم
من أسر ، ومنهم من سلم ، ومنهم من كسر ، ومنهم من هرب بعد أن ألقوا
سلاحهم . . . الخ - المترجمان .

٧١ - (جاء فى الإسلام : ١٠٦ ب) . . . وكان فرار أهل
الاسكندرية من الفرنج من باب السدرة ، وباب الزهلى ، وباب رشيد .
بعد زحام شديد ؛ فمنهم من أدركته الفرنج بمصاب السدرة قتله ، ومنهم من
أسرهم ؛ ومنهم من نزل من السور فى الحياض والعيث ، فعطب الماطب وسلم
السلم ؛ وصعدت الفرنج على أعلى باب السدرة ، نصبت عليه أعلام الصليان ،
وصار كل واحد من المسلمين يرى ربه الفرونج كالهائم الوهان . . . الخ -
المترجمان .

٧٢ - (القيسارية - والجمع قياصر : هى الشوق القجارية العائمة - انظر
شرحنا وانها لهذا اللفظ فى :)

Dozy, Supp. Dict. Arabes, II, p. 432 : المترجمان .

٧٣ - (الختان - والجمع خانات : يطلق على الفندق الذى تمكس فيه -
البضائع والسلع للبيع بالجملة ، وينزل فيه التجار عادة للبيت به - المترجمان .)

٧٤- (جاء في الإسلام ، : د (١٠٧)) ثم إنه لما حصل الغلاء بين أهل الاسكندرية ، الذين فروا من ملة النصرانية ؛ منهم من باع ما عليه من فوطه وفاضل قميص ، ومنهم من باع ما يتدفأ به من جبة فرو (و) مصيص ؛ وذلك لخروجهم من بلدهم سرعه ، وليس مع بعضهم درهم ولا قطعة ؛ بل تركوا ديارهم مغلفة الأبواب ، كسرتها ورتعت فيها الفرنج السكلاب ؛ فنهبتها (مع) الحوانيت والفسادق ، رحلت ما فيها على الجمال والخيول والآليات ؛ ثم قتلوا من اختفى عند مصادفتهم له من كبير وصغير ، وعرفوا المواشي فيها هالك وكسير ؛ ثم إنهم أحرقوا القياسر والخانات ، وأفسدوا (في) اللذوان والبساتين ؛ وكسر كل شئج مارد ، قنادريل الجوامع والمساجد ؛ وعلقوا على السور أعينهم السليمان ، وأمرؤ الرجال والنساء والإي (ما) . والولدان ؛ وقتلوا كل شيخ عاجز ، حتى المجانين والبلهاء والعجائز . . . (١٠٧ ب) ثم إن الفرنج فعلوا بالاسكندرية - ما تقدم ذكره - من نهب وكسر ، وقتل وإحراق وأسر ، من عصر يوم الجمعة إلى آخر يوم السبت ثمانية . . . الخ - المترجمان .

٧٥- (قارن هذا التاريخ (ثاني صفر) بما جاء عن المسندة التي أقامها الفرنج بالاسكندرية كما ورد في الإسلام ، - وهو ما أئبته بالحاشية رقم (١٣٠) - وهو ما ساقه أيضا Kahle في ترجمته للنص العربي ، في صفحة (٥١) من هذه الترجمة . والذي يبدو أن Kahle قد وهم في تحديد التاريخ بثاني صفر ، إذ لم يرد ذكر هذا الشهر في النص العربي الذي ترجمه Kahle هنا ، ولكن المذكور هو : . . . من عصر يوم الجمعة إلى آخر يوم السبت ثمانية ، (راجع الحاشية السابقة) ، ويعني هذا أن الفرنج قاموا بعمليات النهب والسلب ابتداءً من يوم الجمعة ٢٢ المحرم إلى ثاني يوم يلبه وهو السبت ٢٣ المحرم ، وهذا واضح في النص العربي الذي أشرنا إليه هنا عن الحاشية السابقة كما ذكرنا . وعلى كل حال ، يوافق يوم السبت الذي أشار إليه Kahle في مقاله غرة صفر وليس ثمانية ؛ انظر في ذلك :

محمد مختار ، كتاب الترفيعات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالمسنيين
الأفريقية والقبطية ، الطبعة الأولى ، بولاق مصر ، ١٢١١ هـ - المترجمان .

٧٦- كانت المعاريج منطقة تلاصق أحمد التلال بالاسكندرية ، وهو ما يسمى
الآن بكوم الدكة .

(رجوعنا للتأكد من هذا التجديد إلى استاذنا الدكتور السيد
عبد العزيز سالم ، فقال : وهكذا فسر Kahlé المعاريج ، ولم يرد في النصوص
العربية ما يؤكد ما ذهب إليه Kahlé ؛ والمتواتر أن كوم الدكة هي نفس
المنطقة المعروفة في المصادر العربية باسم كوم الديماس . . . هذا ،
وقد بدى في إزالة هذا الكوم في سنة ١٩٥٦ م - حتى سنة ١٩٥٨ - وقد
صدرت مقالة Kahlé في عام ١٩٤٠ - بينما لا يزال مكانه يحتفظ بنفس
الاسم - المترجمان .)

٧٧- (كذا في نسخة يراين ، وفي نسخة الهند : (وفندق الطبيعة) -
المترجمان .)

٧٨- كان نجم الدين الدماميني من فئة تجار الكارم بالاسكندرية ؛ راجع :
Quatremère, in Note. et Extr., XIII, 1838, S. 214, Note 1
وقد أفاض Quatremère الكلام في المرجع السابق وكذلك في Note. et
Extr., XII, 1831, S. 639 عن طائفة تجار الكارم ودورهم بين التجار
وعن انحدار أصولهم من أفريقية ، وسيطرتهم على تجارة التوابل . راجع :
Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen - Age,
II, 59, Note 6.

٧٩- كان جامع الجيوشى في الأصل كنيسة تمعرف باسم كنيسة أثناسيوس
Athanasius التي شيدت في عام ٣٧٠ م ثم تحولت إلى مسجد . وقد أعاد أمر
الجيوش بدر الجمالي تعمير هذا المسجد في عام ١٠٨٥ - ١٠٨٦ : راجع :

van Berchem, Corpus, I, 702 ، وأطلق عليه اسم جامع الجيوشى نسبة إلى أمير الجيوش ، وهو الجامع الذى يعرف اليوم باسم جامع العطارين . وتوجد صور مرسومة لهذا الجامع فى :

Description de l'Égypte, Antiquités, V, pl. 38 f.

٨٠- (الدرايزى : هو السياج الذى يحف بالدراج ، وغالباً ما يكون من الخشب ، كشأن السياج الى جانبي المنبر . وقد ورد هذا اللفظ فى موضع آخر من المخطوطة برسم « درايزين » ، وهو ما يتداوله العامة فى أيامنا هذه - المترجمان .)

٨١- من الصعب علينا أن نحدد الأماكن التى ذكرها المؤلف هنا بالنسبة لكل من جامع الجيوشى وباب رشيد . إلا أننا إذا ذهبنا إلى أن المؤلف قد قام - إلى حد ما - بوصف أماكن المدينة الخشبية حسب توقيت وقوع التخریب بها ، نراها تتركز فى المنطقة الواقعة من العطارين حتى باب رشيد . فمن المحتمل إذن أن المحجة كانت تقع قريباً من باب رشيد ، وعلى وجه التحديد جنوبى الشارع الذى يؤدي إلى هذا الباب . وقد حدد هذا الموضع مهندسو الحلة الفرنسية بشىء من الدقة فى تخطيطهم للمدينة . ويثبت بذلك ماقرره مؤلفنا (الورقة ١٠٦ ب) من أن سكان المحجة قد دافعوا عن أنفسهم بقذف الفرنج بالحجارة من منازلهم ، نفي الفرنج لذلك أن تهاؤ أقدامهم هذه المنطقة . وعلى ذلك ، ظل هذا الجزء من المدينة دون أن تناله يد التخریب تقريباً .

٨٢- (المقصود بالكميتلاتين : التجار من أهل قهالونية بأسبانيا - المترجمان .)

٨٣- (فى نسخة الهند : (الشماين البياعين) ، وما بالمتن - عن نسخة برلين - أصح - المترجمان .)

٨٤- هؤلاء البياعون هم باعة منتجات المناطق الاستوائية ، وكان مما يبيعونه الزيت والعسل والسمن فى أوعية مختلفة .

٨٥- المقصود هنا هو الملك الناصر قلاوون الذى حكم على فترات متقطعة فيما بين ١٢٩٣/٦٩٣ و ١٣٤٠/٧٤١ ؛ راجع :

Asin Palaciós, El Faro de Alejandria (Al Andalus, I, 1933, S. 281) .

فقد أشار (وسجل ذلك أيضاً ابن بطوطة في رحلاته عند زيارته لمصر في عامي ١٣٢٦ و ١٣٤٩) إلى أن الناصر - بعد سقوط المنارة القديمة - بدأ العمل في بناء منارة جديدة على طراز القديمة تقع في مواضعها ، إلا أنه توفي قبل أن يكمل هذا البناء . وتوجد هنا إشارة إلى تكملة ابن عرام حاكم الاسكندرية لبناء هذه المنارة الجديدة قبل الوقعة بقليل ، أى في عام ١٣٦٤ أو ١٣٦٥ . ويقال إن باب هذه المنارة قد شوهد في جزيرة قبرص .

﴿ كذا ذكر الاسم في نسخة برلين . وقد أخطأ فيه أيضاً Kahle في الحاشية التي نماق عليها الآن ، وربما سقط لفظ (بن) بعد الناصر ليصبح الاسم وبالاقصالى التعليق الذى أورده Kahle . وقد جاء الاسم صحيحاً في هذا الموضع من نسخة الهند ، فهو : (الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون) ؛ راجع مزيداً من المعلومات عن اهتمام الناصر محمد بهذه العبارة في : جبال الدين الشيبان ، تاريخ مدينة الاسكندرية في العصر الإسلامى ، ص ١٣١ - ١٣٢ ، الاسكندرية ١٩٦٧ - المترجمان ﴾ .

٨٦- ﴿ جاء مكان هذه العبارة في نسخة الهند : (من الفرج قبل نزولهم) - المترجمان ﴾ .

٨٧- ﴿ في نسخة الهند : (مصلى الأعياد وعمود) - المترجمان ﴾ .

٨٨- ﴿ ورد هذا اللفظ في كل من نسخة برلين ونسخة الهند : (اللذان) المترجمان ﴾ .

٨٩- Silber . Umrahungen . والترجمة الموجودة هنا مأخوذة عن :

Ch. Kuentez الذى ذكر أن كلمة (بقا) كلمة تركية تعنى (Col) ، والمقصود بها هنا : د حاية دائرية ، عبارة عن شريط زخرفى يدور حول التحففة (المراد زخرفتها) .

- ٩٠- ﴿ هذا اللفظ ساقط فى نسخة الهند - المترجمان ﴾ .
- ٩١- ﴿ فى نسخة الهند : (بها) - المترجمان ﴾ .
- ٩٢- ﴿ المرابد ، هم النهاية من الجند Maraudéurs ؛ راجع :
- Dozy, Supp. Dict. Arabès, II p. 108 - المترجمان ﴾ .
- ٩٣- ﴿ فى نسخة الهند : (مأربهم) - المترجمان ﴾ .
- ٩٤- ﴿ هذا اللفظ ساقط فى نسخة الهند - المترجمان ﴾ .
- ٩٥- ﴿ فى نسخة الهند : (فأحرقها) - المترجمان ﴾ .

٩٦- أورد ابن إياس ، مخطوطة فاتح ، رقم ٤٢٠٠ ، ورقة ٥٨ ب ، قائمة بأجناس هذه المراكب ، فقد ذكر منها أربعة وعشرين غرابا للبنادقة ، وغرابين للجنوية ، و عشرة أغربة للروادسة ، وخمسة للفرنسية ، وما تبقى للقبازصة .

﴿ وقد فلت Kahle تلك القائمة التى أوردتها صاحب «الإمام» نفسه فى (١٢٣) من نسخة برلين التى اعتمد عليها ، والتى يقول فيها النويرى : « أتاها - يعنى الاسكندرانية - مراكب حربية بجمعة من أجناس مختلفة . قيل إن البنادقة أتت معه إليها فى أربعة عشر غرابا ، والجنوية فى غرابين ، والروادسة فى عشرة (ة) غرابان ، والفرنسيين فى خمسة (ة) غرابان ، والباقى من جزيرة قبرص » . والمشاهد أن ابن إياس يأخذ عن صاحب «الإمام» - أو عن آخر نقل عنه - ، ونص ابن إياس يتفق وما ورد فى «الإمام» ، إلا فيما يختص بعدد غرابان البنادقة - المترجمان ﴾ .

٩٧- ﴿ كذا في نسخة برلين ، وفي نسخة الهند : (علامته) ، وهذا أوقع - المترجمان ﴾ .

٩٨- ﴿ في نسخة الهند : (منها) - المترجمان ﴾ .

٩٩- ﴿ ما بين الحاصرتين مغموس فيما بين أيدينا من نسخة برلين المصورة ، وما هنا عن نسخة الهند - المترجمان ﴾ .

١٠٠- من المعتقد أن المؤلف يشير هنا إلى سيطرة الفرنج على مدينة طرابلس الغرب طيلة اثنتي عشرة سنة تمتد من سنة ١١٤٦ إلى ١١٥٨ .

١٠١- استولى الصليبيون على مدينة أنطاكية في عام ١٠٩٨ ، وظلت ١٧٠ عاما في أيدي المسيحيين .

١٠٢- ذكر خليل الظاهري (زبدة كشف الممالك ، نشر Ravaissé ، ص ٤٠) شيئا عن قصر السلاح في قوله : « وبالغنى قصر السلاح مملوء بالعدد المختلفة ، حتى إن لو جاء إليه أهل الديار المصرية لكفاهم في اللبوس » .

١٠٣- ﴿ ورد هذا اللفظ في نسخة برلين : (الزربية) ، وكذا نقله Kahle في مقاله . والتصحيح هنا عن نسخة الهند - المترجمان ﴾ .

١٠٤- ﴿ هذا اللفظ مغموس في نسخة برلين ، وما هنا عن نسخة الهند - المترجمان ﴾ .

١٠٥- ﴿ كذا وردت العبارة في نسخة برلين ، بينما جاء في نسخة الهند وقد طمس بعضه بفعل الترميم ما يلي : (اسلاح سر السلاح المذكور على قاعات الرماة) - المترجمان ﴾ .

١٠٦- ﴿ ورد هذا اللفظ في كل من نسخة برلين ونسخة الهند : (ستين) - المترجمان ﴾ .

١٠٧- ﴿ رسم هذا اللفظ في نسخة برلين : (القنابر) ، وهو تحريف
 لـ أثبتناه في المتن كما أنه ورد في نسخة الهند (العنابر) بأبواب الموحدة .
 وقد نقله Kahle بنفس التحريف الوارد في نسخة برلين ، وترجمته إلى
 الألمانية بمعنى Keulen أى المراوات ، وأتبع هذه الترجمة بعلامة (؟)
 دلالة على شكه وعدم تأكده من معناه ، وإن كانت الترجمة قريباً من المراد .
 والعنابر (ومفردها : عنزة - بفتحة على الحروف الثلاثة الأولى -) اسم من
 أسماء الرماح ؛ يقول ابن هذيل ، حلية الفرسان ، ص ٢٠٢ ، في شرحها :
 « العنزة ، وهى عصا فوق المراوة فيها دزج » ، وهى من السلاح لإمكان
 الدفع بها ، والزوج فيها يشبه للسنان وإن لم يكنه . انظر : نعمان ثابت ،
 الجندية في الدولة العباسية ، ص ١٨٤ ، فقيه : « العنزة ، قدر نصف ربح » ،
 ويصدها نعمان ثابت في قائمة أنواع الرماح ؛ انظر أيضاً : عباس عمرد العقاد ،
 عبقرية عمر ، ص ١٣٠ ، ١٨٠ ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ١٩٤٨ . وقد أخطأ
 Dozy في تفسير العنزة على أنها السهم la flèche ؛ راجع :
 Supp. Dict. Arabes, II, p. 181 - المترجمان ﴾ .

١٠٨- ﴿ راجع ماقت هنا بالهامشية رقم (٤٩) - المترجمان ﴾ .

١٠٩- ﴿ فرقل - والجمع : فرقلات - ضرب من الدروع ؛ انظر :
 Dozy, Supp. Dict. Arabes, II, p. 336 - المترجمان ﴾ .

١١٠-١١٣- ﴿ هذه المصطلحات تدل على المقصود منها ، فهى أدوات
 لوقاية أجزاء الجسم المذكورة ، وهى تصنع عادة من المواد الجملدية
 أو المعدنية - المترجمان ﴾ .

١١٤- ﴿ جاء في 418 p. II, Supp. Dict. Arabes : Dozy
 وقوس اللوب ، هو القوس الذى يوتر (يشد) بآلة معينة . قارن ما جاء
 هنا بما ورد بالهامشية رقم (٤٥) - المترجمان ﴾ .

- ١١٥- (راجع ما فات هنا بالهامشية رقم (٤٥) - المترجمان) ،
- ١١٦- (الركاب - والجمع : ركب ، وركابات ، وأركب - : ما يعاق في السرج فيجمل الراكب فيه رجله - المترجمان) .
- ١١٧- (يقصد بـ نوع من الحجازة الصلبة التي تستخدم فذائف للمجنقيات - المترجمان) .
- ١١٨- (عن مكائد الحرب وذخائرها وصنوفها ، راجع : نسخة الهند من الإلهام ، - ما لم تلحق به نسخة برلين - ، ١٢٠٦ - ٢٠٧ ب ، ١٢٠٨ - ١٢٠٩ ، ٢٠٩ ب - ٢١٠ ب : المترجمان) .
- ١١٩- (جاء هذا اللفظ في نسخة برلين ، (كثيرا) ، والتصحيح عن نسخة الهند - المترجمان) .
- ١٢٠- (في نسخة برلين : (كينسا) ، والتصحيح عن نسخة الهند - المترجمان) .

١٢١- من المرجح أن المقصود بذلك ما كان يعرف باسم Fort Triangulaire الذي كان قائما في جنوبي غربي السور العربي ، والذي وجد مرسوما بشكل واضح في تخطيط علماء الحملة الفرنسية لمدينة الاسكندرية . وقد اهتم به الفرنسيون لجملوه في حالة صالحة للقيام بمهمة الدفاع ، إلا أنه دمر تدهيراً تاماً بالمتفجرات في عام ١٨٠١ ؛ راجع : Grotien le Père, Mémoire sur la ville d'Alexandrie, in Description de l'Egypte, XVIII, 1 (Paris 1826), S. 416.

١٢٢- (هو تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الجبار الهاذلي . ولد في عام ١١٩٧/٥٩٣ في إقليم غمارة بالقرب من مدينة سبقة بالمغرب الأقصى ، وعاش معظم سني حياته في تونس ومصر ، وأنشأ مدرسة صوفية كبيرة ، مازال أتباعها وتلاميذها ينشرون في مختلف أنحاء العالم الإسلامي ويكونون

فـرقا صوفية كثيرة تشعبت كلها عن الفرقة الأصلية التي أنشأها ونسبت إليه ، وهي الفرقة الشاذلية . وتوفي أبو الحسن الشاذلي في عام ١٢٥٨/٦٥٦ في حميثرا ، وهي موضع في الصحراء المؤدية إلى عذاب على البحر الأحمر ، ودفن حيث مات ، انظر ترجمة وافية له في : جمال الدين الشيال ، أعلام مدينة الاسكندرية في العصر الاسلامي ، ص ١٦٢ - ١٩٠ ، نشر دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥ - المترجمان) .

١٢٣- (راجع ما فات هنا بالحاشية رقم (١٠٣) - المترجمان) .

١٢٤- (ورد هذا اللفظ في نسخة برلين : (أعلا) - المترجمان) .

١٢٥- الأصح أن نسميها أبواب البحر . قارن ذلك بملاحظة خليل الظاهري (ص ٣٩) : ولانظر عدة أبواب محكمة حتى إن على كل الباب منها ثلاثة أبواب
من حديد .

١٢٦- (للمنجنيق - بفتح الميم وكسر ها - أو المنجنوق ، أو المنجنيق ، والجمع : منجنيق ، ومنجنقات ، أفظ أجمعى معرب : انظر : أبو المنصور الجواليقي ، المعرب من الكلام الأجمعى على حروف المعجم ، تحقيق محمد شاكر ، ص ٣٠٥ - ٣٠٧ ، القاهرة ١٣٦١ هـ . وجاء وصف المنجنيق في : القلقشندي ، صبح الأعيان في صناعة الإنشاء ، ج ٢ ، ص ١٤٤ ، القاهرة ١٩٢٨ ، كما يلى : وآلة من خشب له دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف ، تجعل كفة المنجنيق التي يجعل فيها الحجر يجذب حتى ترفع أسافله الأعلى أعاليه ، ثم يرسل فهد تفع ذنبه الذي فيه الكفة فيخرج الحجر منه ، فما أصاب شيئا إلا أهلكه . وانظر أيضا شروح الدكتور جمال الدين الشيال على هذه الآلة الحربية في : جمال الدين بن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨٠ ، ٢٨ ، القاهرة ١٩٥٣ : وراجع : الحسن بن عبد الله ، آثار الأول ، ص ١٩١ - ١٩٣ : المترجمان) .

١٢٧- ﴿ الاستعمالات هي الملابس والثياب - المترجمان ﴾ .

١٢٨- ﴿ الكدس - والجمع أكداس - هو الكوم ، انظر :
Dozy, Supp. Dict. Arabes, II, p. 449 وقد رجعنا في تحديد
هذا المكان وفي التعريف به إلى استاذنا الدكتور السيد عبد العزيز سالم ،
فقال : ثبت من كتاب الإسلام ، أن الكدس موضع يقع في جهة الباب
الأخضر (انظر المتن هنا) . ولما كان الكدس معنى الكوم ، فلا يوجد
في هذه المنطقة سوى كوم وعلة ، وهو أحد أكوام الثلاثة كانت تميز بها
طبوغرافية الاسكندرية في العصر الإسلامي هي : كوم وعلة ، وكوم الدكة
وكوم العافية ، - المترجمان ﴾ .

١٢٩- ﴿ إلى هنا ينتهي ما يترجمه Kahle حرفياً عن الإسلام . .
هذا ، وقد عقد الدكتور السيد عبد العزيز سالم في كتابه - الذي أشرنا إليه
أكثر من مرة - فصلاً كاملاً فيه دراسة شيقة عن غزوة القبارصة
للإسكندرية والآثار التي ترتبت على حركتهم هذه ؛ قارن ما ورد في هذا
المقال عن هذه الغزوة بما جاء في الكتاب المذكور ، ص ٣٠٩ - ٣١٨ :
المترجمان ﴾ .

١٣٠- ﴿ جاء في الإسلام : (١١٠) . . . وكانت مدة إقامة
الفرنج من حين أتوا إلى الإسكندرية وظفروا بها إلى آخر من سافر منهم
ثمانية أيام ، وذلك أنهم أتوها يوم الخميس حادى عشرين المحرم سنة سبع
وسعين وسبعمائة وسافر آخرهم يوم الخميس الثامن والعشرين من الشهر
المذكور . وكان سبب إقامتهم تلك الأيام لينظروا من البحر من يأتي من
النجدة من مصر . فلما عاينوا وهم بمراكبهم العساكر أقبليت كالجراد المنتشر
يقدمها الأمير الاتابكي بلبغا الحاسكي ، سافروا . . الخ ، (انظر أيضاً في
رحيلهم . لوحة ١٨٦) - المترجمان ﴾ .

١٢١- لم يحضر السلطان - في الواقع - إلى الاسكندرية عقب الوقعة مباشرة ليشرّف بنفسه على تلك الاستعدادات الحربية بالمدينة كما ذكر Kahlé هنا ، وإنما كان الذي أتى الاسكندرية الأمير يلبغا الخاسكي ، وهو الذي أشرف بنفسه على عمارة ماخر به الفرنج من منشمات مدنية وحربية ، ونفذ ذلك صلاح الدين بن عرام ؛ يدل على ذلك النص التالي الوارد في الإسلام ، - بجانب الإشارة الواردة في الحاشية السابقة :-

(١١٨٦) . . . ولما دخل الأمير يلبغا الخاسكي الاسكندرية ورأى وشاهد ما آل أمرها إليه من الهدم والحريق والقتل المطروحة بظاهرها وباطنها ، بكى على ما أصابها وأصاب أهلها في أيام عزه وحكمه ، فلام نفسه على عدم التركيب بها حين بلغه أن العمارة بجزيرة قبرس . وأمر حينئذ الأمير صلاح (١١٨٦ ب) الدين [بن عرام] بدفن القتل ، فدفعها . وأمدّه بالأموال لعمارة ما خرب منها ، فاجتهد في العمارة ، وشق خندقاً إلى جانب السور الذي توصلت منه الفرنج إلى الاسكندرية - لم يكن قبل ذلك - فعمره في أسرع وقت . وهذا الخندق المتجدد محاذ للموضع المسمى من داخل السور بدار الصنعة وديوان الخس ويجاري الأقمية ، وصله بالخندق الأصلي الذي أوله ساحل بحر السلسلة والهاب الأخضر إلى قلعة ضرغام ، فزاد في القلعة المذكورة ، إلى أن وصل ببحر الميمنة الشرقية . وكان البحر في الزمان القديم يضرب في السور إلى عند قلعة ضرغام ، فلذلك تركت المتقدمون ذلك الموضع بغير خندق ، ثم انطرد البحر عن السور بعد ذلك ، فصار ذلك المكان بغير خندق ، وطال الأمن وعدم الخوف ، فأهمل المسلمون ذلك للموضع من حفر الخندق . وضرب الدهر ضرباً لا يطاله الزمان وتغير الأوقات وتقلب الدول ، وصارت المسلمون في أمان واطمئنان ليس عندهم [هم] ولا تذكر لإطالة الأمد ، فوجد العدو مكاناً خالياً من خندق ورجال وعدد . كما تقدم ذكر غلق باب الديوان خوفاً من أن تدخل البضائع البلد منه بغير حق ، فتوصل [العدو] بسبب غلق بابه ومنع المقابلة من

طلوع سوره من تلك الجهة إلى البلد نجاس في خلال الديار وعربد . ثم إن الأمير صلاح الدين بن عرام عمر في ولايته الثانية خندقاً غرب السور ، وهو المكان المعروف بالمطرق ، أوله قلعة الباب الأخضر وآخره القلعة المجاورة لدار السلطان وباب الخوخة ، وصله بالخندق المحيط بالاسكندرية من جهة اليمين ، فصار ذلك خندقاً ومطرقاً ومكناً لدخول نجدة المسلمين منه في خفاء لإقامة حائطه الذي إلى البحر إلى أن يخرجوا منه على حين غفلة إلى الجهة زيرة .
وقعت حرب الفرنج إن أموا لذلك . ثم إنه أيضاً عمر المطرق الشرقي المحاذي لدار الإمارة . ثم غرق أيضاً الحجار بالمينة الغربية حفظاً لمراكب المسلمين ، وزم قومة التفريق بسلسلة ضخمة . وعمل أيضاً مدط حديد لباب الصناعة القريبة من جهة المطرق المذكور ، تخرج منه الرماة إلى المينة وتدخل منه وقت الحرب وأبواب الاسكندرية حينئذ مغلقة ؛ فإن دم العدو المسلمين ، دخلت المسلمون منه بمهاجرة رماة السور التي بأعماله لإيادهم إلى أن يدخلوا جميعاً . فإذا حصلوا داخله ، أرخى عقيب دخولهم المشط الذي لا يرفعه غير المسلمين من (١٨٧) أعلى السور بالسريقات الدائرة المحيطة على لواب الأبراس لثقله وجفوه . وكانت عمارته للمطرق الغربي وباب المشط الحديد في سنة تسع وستين وسبعمائة . . . فالأمير صلاح الدين بن عرام - المذكور - هو الذي غرق الحجار ، وحفر الخندق الجديد والمطرقين وما خرب من الاسكندرية ، وهو الذي أقام أبواب البحر الأول والثاني هوضاً عن البابين الذين أحرقتهما الفرنج . وكذلك أقام بابي رشيد التي أحرقتهما أهل الاسكندرية حين الوقعة لتجد النجدة الآتية من مصر مكاناً مفتوحاً تدخل منه إلى قتال الفرنج بها . كذلك أحرق المسلمون باب الزهري لتدخل النجدة منه أيضاً . ثم إن الأمير صلاح الدين أقام أيضاً أبواب دار الصناعة الشرقية وأبواب الديوان ، وسد الباب الأخضر وباب الخوخة وباب الزمري وباب الآفنية ؛ لحصل بعمله المستعدين ، النفع للمسلمين . . . (١٩٣) . . . ثم إن الأمير يابغا جدد في عمارة المراكب

الحربية بمصر والشام ، لجزء منها مائة وخمسين مركبا منها طرايد الخيل وشواني
الغزو . فلما كلفت العبارة المصرية - وكانت مائة مركب أشحنها بالرجال
الابطال ، وبالأسلحة الثقيلة - وأمر الغز أن تلبس الزرد القصيد ومصفحات
الحديد بالبر ، فلبستها وركبت خيولها . . . الخ - المترجمان .

١٣٢- قام الدكتور عزيز سوريال عطية بدراسة لجزأى مخطوطة برلين
(والجزء الثالث منها يوجد في القاهرة) وأكد الافتراض الذى ذهب إليه
Gildemeister (a. a. O., S. 431 ; vgl. Herzsohn, a. a. O., S.
XII, Note b) أن مؤلف هذه المخطوطة هو محمد بن قاسم بن محمد بن عبد النويرى
المالكى السكندرى ، وقد ورد اسم النويرى في اشعار له بمخطوطات برلين
(ورقة ١٢٠ ، ورقة ١٦٩) ؛ قارن ذلك بما أورده حاجى خليفة (نشر
Flügel ، ج ٢ ، ص ١٠٧) وابن حجر العسقلانى (الدرر الكامنة ، نشر
Krenkow ، ج ٤ ، ص ١٤٢) .

(لم يعتبر Kahle صفحة العنوان الصفحة الاولى من نسخة برلين ،
وهو غير ما أخذنا به هنا في ترقيم صفحات المخطوطة ، وعلى ذلك يقابل
موقع الورقتين ١٢٠ و ١٦٩ اللتين ذكرهما Kahle هنا الاوحتين ١١٩ و
١٦٨ ؛ قارن ذلك بما جاء هنا في ص ٤١ و ٢٤ بنفس الصفحة .

واقعد رثى النويرى مدينة الاسكندرية بقصيدة طويلة تستغرق من
(١١٧) إلى (١١٩) ، ومطلعها :

عاذلى لا تلم واخل ملاي . . . فعيونى بعد الدموع دواي
ويقول فيها :

فالنويرى قد رثى الثغر حقا . . . عام سبع ، يابحه من عام
بعد ستين ، بعد سبع مئين . . . وأنى بالتاريخ الإعـلام
وفى قصيدة أخرى له (١٦٨) يتوعد فيها القبرسى لوسوات له

نفسه بالإغارة مرة أخرى على الاسكندرية ، ويتعامل بذلك فيجداها بقوله :
 اهلنا للمسلمين بالظفر . : من أحدى الله عباد الصور
 ويقول فيها :

قالنويرى قال ذا تفاولا . : قبل أن يأتي ، وللأغال امر
 هذا ، وقد ذكر النويرى اسمه أيضاً في أبيات أخرى موجودة في نسخة
 الهند (١٦٤) وساقطة في نسخة برلين ، فيقول في معرض ذكره اترميم
 جامعى الاسكندرية الشرقى والغربى في عام ٧٧٢ هـ :

لسان النويرى بالمديح مقصر . : بما قاله في الجامعين وأودعا
 كما ورد اسم النويرى مرة رابعة في نسخة الهند (١٦٤) — ولم تلحق
 نسخة برلين بهذه الصفحة — في أبيات قصيدة له يمدح بها الرئيس إبراهيم
 الغازى ، رئيس دار الصناعة بالاسكندرية . وقد جاء اسمه في هذا البيت
 عرفا ، كما انمحق فيه للكلماتان الأخيرتان — بفعل الرطوبة — من الشطر الثانى :
 فالنويرى سره الفعل الذى . : فعل الغازى . . .
 ومحمته كما ورد في الجزء الأخير من نسخة دار الكتب (١٠٣) : —
 فالنويرى سره الفعل الذى . : فعل الغازى المزبور الغازى

أما بلده (النوير) ، فقد ذكرها صراحة في (١٦٥ ب) من نسخة
 الهند — وهى ساقطة في نسخة برلين — ولهذا النص أهمية ، إذ هو يلقى
 ضوءاً على نشأته الأولى ومهنته قبل النزوح إلى الاسكندرية للاستقرار
 بها حيث اشتغل ناسخا كما أشار هو من قبل (راجع ماقلت هذا بالحاشية
 رقم ٢٣) : فيقول في صدد خروجه من الاسكندرية فاراً بنفسه وبأهله
 حين الوقعة :

... ولما ظفر القبرسى بالاسكندرية في آخر المحرم سنة سبع وستين

وسبعائة وشرذ غالب أهلها منها ، خرجت بعينهم ، فقصدهم بلدة
النويرة بالصعيد الأدنى من مصر ، (وكان) إذ ذاك مدرس المدرسة المالكية
بمدينته الفيوم الشيخ الإمام العالم شرف الدين أبو حفص عمر بن الشيخ
الإمام العالم تاج (الدين) — المدرس بها قبله — ابن الشيخ الإمام العالم
شرف الدين سيد الناس ، فصار متشوقا لرؤيته ، وذلك للصحبة التي بيني
وبينه ببلد النويرة في المكتب ، وبالاشتغال بالقاهرة بالمدرسة المنصورة ،
لأخبره بما اتفق بالاسكندرية ، فدحته بأبيات ... الخ ، — المترجمان — .



اللقاء بين التصوف الاسلامى والتجريد التشكيلي

محمود ملى

إذا كان الموضوع موضوع الفن ومدارسه فلا يعنيها هنا الا المدرسة التجريدية في مرحلتها التي مزجت فيها نفسها بالمفهوم الصوفي ، أى أننا لا يعنيها من الفن الا الاتجاه الذي تحدت معالمه داخل مدار خاص ابتعد بها عن شكلها الأول الذي ذهب بالالوان والخطوط الى الآفاق التي تنفخس فيها الموسيقى . وقد تحقق هذا الاتجاه على يدي « فاسيلي كاندينسكى » الذي تحول الموضوع التشكيلي الى لاموضوع فاعطت الصورة للعين نفس المذاق الذي تعطيه الموسيقى للأذن ، وهكذا حطم « كاندينسكى » الحواجز الفاصلة التي كانت تفصل بين الموسيقى والتصوير التشكيلي ، كما يقول سيد « ميكل سادلر » ، وهذا هو مبدأ وحديات الفن الاسلامى الذى يعرفه دكتور « أرنست كينل » : « ريشة الفنان تصور الموسيقى »

ثم جاء الشكل الآخر الذى نحواك اليه الصورة التشكيلية ، وكان هذا من ابداع الفنان الهولندى « بيث هينديان » وقد اتسم هذا الاتجاه بالسميت الزخرفى الهندسى ، وتبعية الموضوع التشكيلي للشكل الهندسى هذا ليس بالأمر الجديد على الفن ذاته حيث يمكننا أن نقول بوضوح فى الارابيسك الاسلامى غير أن الفن الاسلامى فى جوهره يتميز بأنه « تجريد روحى » ، وهذه الصفة جاءت نتيجة صبغة النشاط الانسانى كله بتلك المبادئ الخاصة والقيم الصافية التي انبعثت من روح العقيدة الاسلامية .

وحيث بالذكر أن نضع موضع الاعتبار أن وجهة التقلاقي بين الفن التجريدى والتشكيلي المعاصر سواء فى شكله المتجسجى يرى أو فى انجسجه الهندسى وبين الفنون الاسلامية ، أن كلا الفئتين الاسلامى والتجريدى للمعاصر يتناولان اللاموضوعى ، وأن كلا الفئتين يرفضان المحاكاة والتقليد ، هذا من الوجبة « العرضية » ، أما من وجهة « الجوهر » ، فإن نقطة التقلاقي عندهما نجدها فى أن الفن عند كليهما يعمل من داخل ذاته ومن صميم نفسه ، وقد يستعير أحياناً من الخارج بعض أشكاله ولكن

روحه القائمة في صميمه تبقى دائما وأبدا الحافظ الرئيسى لقوامه الياطنى ومصب قوالبه
ومبعث طرازه ومغذيت مناجيه ومصدر الهامه .

وقد قال كاندنسكى ومندريان ، عن أعمالهما هذه اللاموضوعية إنما قصد بها
الابتعاد عن الواقع الموضوعى إلى واقع روحى أمثل . وكان يتموفن من قبلهما
يصر على أن مؤلفاته التى تنظر إليها غالباً بوصفها خلاصة الموسيقى المطلقة البحتة
ما هى إلا تعبير صادق عن فهمه لمعانى الحياة نفسها وصورها الباطنية .

أما الرواد الذين جاءوا بعد كاندنسكى ومندريان ، فقد تشعب الكثير منهم
إلى مناح مختلفة وطرق متباينة ، ثم استقر الامر بالفغانين الذين رفضوا أن تكون
التجربة تجربة حواس فجعلوا للصورة رموزاً وأشارات صوفيسية لها معان غيبية
بجردة ووضعوا فيها حقيقة روحية تعبر عن جوهر الوجود ذاته ، ومن هنا كانت
موضوعية اللاموضوع التى تفاولت شكلاً له وجود سابق على ماهيته ، وبهذا أصبح
الفن التجريدى عملاً حدسياً قبل أن يكون رؤية ، وتذوقه يحتم عمل البصيرة قبل
أعمال البصر ، وعندما صور ديونى لوحته التوافذ المفتوحة قالوا هنما انها نوافذ
مفتوحة على حقيقة جديدة .

ولسنا هنا ننتج حقيقة التصوف الإسلامى فى أسبابه الرئيسية ، وهل كانت
نشأته الاولى قائمة على الركائز الروحانية الخالصة التى ملأت أفئدة بعض المسلمين ،
ومصدرها حياة الرسول الروحانية مثلاً . أما أن التصوف جنوح آرى إلى غيبية
معينة تلمسها العقلية الآرية التى دخلت الإسلام ولم تفهم طبيعته الحقيقية ، أو هل
هو استغراف هندية ساجية أخذت سبيلها إلى السكيات العاطفى الإسلامى الذى عارض
مظاهر البذخ والوان الترف الشائع فى المجتمع الإسلامى أبان العهد العباسى . أم أن
التصوف الإسلامى ما كان إلا الجذور المارتدة إلى الافلاطونية المحدثة والتى كان لها
وجود فى قاع ووجدان الناس الذين امتزج بعضهم بالبعض فى رقعة مقلصة
قامت فيها وعاشت يوماً تلك المدرسة . وإذا كانت هذه الأسباب كلها أو بعضها
تعتبر تفسيراً لاجتهاديا لاشكال التصوف الإسلامى وصورة فقط ، فإن حقيقة التصوف
الإسلامى تعبر عن حاجة النفس الانسانية إلى الاستكانة إلى منطقة روحية خالصة ،

ولمّا تناول المعرفة بالحدس والدوق والوجدان ، وذلك لأن النفس الانسانية تشعر بالخواء عندما تجد نفسها بحكم الحياة المادية المصرفة منصرفه إلى حقائق المحسوسات وحدها بما يجعلها تميش في خواء من أثر تناولها الحياة في شكها الظاهري ، وأغنى بهذا قصور النفس وعجزها في تلك الحالة عن التفاعل مع الحياة في جانبها الروحي والمادى على السواء .

والتصوف الحقى أمر نادر كما يقول برجسون وأن بذوره قد وجدت في كل مكان وزمان والصوفى العظيم إنما هو تلك الشخصية النادرة التى تستطيع أن تتجاوز الحدود التى عينتها للنوع البشرى ماديته ،

ويجدر بنا أن نأتى على رأى الامام الغزالى فى حقيقة التصوف الاسلامى الخاص النابع من الانسان المسلم الذى لا يبيع غيره ولا يقلد أحداً ، يقول الامام الغزالى : « من قال أن الحقيقة تخالف الشريعة ، والباطن يخالف الظاهر ، فهو إلى الكفر أقرب ، وكل حقيقة غير مقيمة بالشريعة فهى غير محصلة » .

وفلاحظ من حقيقة التصوف الاسلامى فى منطق الامام الغزالى أنه يرى كل البراءة من السلمية القاصرة التى أشرنا إليها فيما سبق ، فانه حينما رفض التجاين كلياً أو جزئياً بين الشريعة والحقيقة واعتبرهما شيئاً واحداً ، فقد جمع بين طرفى الحياة المادى والروحى فى نسق واحد هو النسق الاسلامى ونظريته فى فهم الحياة .

وقد كانت حياة الامام الغزالى تطبيقاً لهذا المنهج سواء فى العقيدة أو فى السلوك ، فعنده من وجهة السلوك أن النفس الانسانية تستطيع أن تحقق كمالها الذاتى ، ومن وجهة العقيدة تظل الالهية بعيدة عن أن تشاركها النفس كمالها المطلق أو أو تندمج بها أو تحل فيها . وغاية ما تنسج له طاقة النفس المتطلعة للسكالى أن تقترب شيئاً ما من أفق الالهية الاعلى .

وهذا بعينه هو التصوف الاسلامى فى صميمه ، ويمكننا أن نجسد له تعبيراً واضحاً فى لغة القرآن ، وهذا التعبير هو الربانية وهى كلمة وردت بصيغ متعددة فى كتاب الله . وقد أدرك المستشرق « جب » هذا المعنى وعبر عنه فى قوله

د أن التصوف الاسلامى ذاته قد شاد صرحه الشاىخ على أسس النظرات القرآنية .
والتصوف الاسلامى فى صميمه يعبر عن فلسفة روحية إسلامية عالمة ، سبان
كانت هذه الفلسفة فى الوسائل أو الغايات .

وواضح بعد كل هذا أن نستبعد من مجال التصوف الاسلامى الخاص كافة
الانحرافات والشطحات التى يمثلها الحلاج فى مسأله ، وابن عربى فى انجاده ،
والسهروردى فى شهوده ، وكل ما هو من هذا القبيل ، ويستبعد الامام الغزالى هذه
الشطحات وغيرها من الافكار وعلى الاخص فكرة وحدة الوجود عن التصوف
الاسلامى الخاص فى قوله : د أن الله تعالى ذات واحدة مخالفة للحوادث ، وأنه
بمقدار ما يتحقق فى النفس الانسانية من صفات الكمال الالهية ، يكون استعدادها
لمعرفة الله وأن العبد عبد والرب رب ، وأن يصير أحدهما الآخر الالهة . أما علمنا
بالله فوقه على إرادته تعالى ، وبهذا المعنى الروحى العميق فهم الغزالى الالهية
فقرّب الله من القلوب . ولقد تبلور التصوف فى نفسه فى قوله : ينتهى الامر إلى
(قرب) يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة الوصول وكل هذا
خطأ . وهذه أربعة أشكال من التصوف رفض الامام الغزالى ثلاثة منها لشطوحها
وأخذ بالشكل الاول وهو « القرب » وجعله قوام تصوفه ، وهو هنا استمد
جوهر هذا التصوف من القرآن الكريم ومن آياته التى تقول : « وإذا سألك عبادى
عنى فأنى قريب » ، وكذلك « ونحن أقرب اليه منكم » ، وكذلك « ونحن أقرب
اليه من حبل الوريد » .

وإذا تسكمتنا عن المذهب التشكيلى التجريدى ، فعليتنا قبل كل شىء أن نضع
المذاهب الفنية التى تقدمت فى قاع الوعاء الفنى للثقافة الانسانية لأن المذاهب
السابقة تمدنا دائما بالخطوط الرئيسية التى بدونها لا يتسنى لنا فهم أى مذهب
جديد .

وأهمية الاطاعة بهذه المذاهب تنحصر فى أن كل مذهب ما هو إلا حلقة من
سلسلة تاريخ الفنون التشكيلية ، وكل حلقة بحكم وجودها الموضوعى تسكل ما قبلها

عدا أنها أساس للحلقة التي يعدها ، والشكل الذاتي لكل حلقة يعبر عن مذهب من مذاهب الفن ، ولهذا يجب الإلمام بكل هذه المذاهب الفنية المتقدمة لتكون كدخلى شامل عندما نريد أن نتعرف على المذهب التجريدى ، ومن الطبيعى أن يأتى هذا بعد أن نضع موضع التمييز الأصول والفروع داخل الاطار السكلى للفنون التشكيلية وذلك من ناحية تطورها ثم من ناحية قوامها الروحى لأن أى مذهب لا يمتنع له البقاء إلا إذا توفر له هذان الوجهان . وهذا بعد أن نكون قد فرقنا بين الجذور الرئيسية والفروع السكلية حتى نتمكن من السير فى طريق مستقيم نحو الفهم الواضح والإدراك الصحيح ، أو بعبارة أدق أن نضع أيدينا على الحقائق المرتبطة بعضها ببعض والتي تكون المذهب التجريدى ، ومن ثم تأتى الدراسة التحليلية على امتداد الزمان .

ونحن بهذا لا نضع المذهب التجريدى موضع الموضوع لحسب ، بل نضع جميع الاتجاهات الفنية المعاصرة ، ثم يبقى أن ننظر بعين الاعتبار وعن زاوية المستوى السكلى المعرفة الإنسانية آثار علم الاجتماع والاقتصاد والمناهج الفلسفية والأفكار السياسية ومدى الأثر المباشر وغير المباشر لا على المذهب الفنى لحسب بل على الوجود الموضوعى الإنسانى بجماعته .

ويكمن جانب كبير من قوة الفن التشكلى التجريدى فى تأثيره على حواسنا أولا ثم ينتقل التأثير إلى أعماق نفوسنا حيث لا تأثير مطلقاً للتذوق الحسى أو لمسح الحواس كلها . وحيث تتكون الصلات الخسالة النقية التي تربط كينونة الإنسان بماهيته ووجوده الموضوعى بأصله الروحى . فالصورة ذات تفاهلين ، التفاعل الأول ينتهى إلى الإدراك الحسى ، والتفاعل الثانى يأخذ سبيله إلى المضمون الجوهر وهذا فيما اعتقد ما أراد أن يعبر عنه شبنهور فى تعريف معنى الموسيقى عندما قال : إن الموسيقى تمكرار لعالم الحواس بأثره وانها الطريقة الأخرى للتعبير عن الجوهر ، .

وهكذا تنجمع هذه الأطراف كلها لنحصل كما يقول دينس هويسمان على سلم تصاعدى من فن مزيف إلى ما يدور من الفن ، أو من شبه الفن إلى الفن الخالص ،

وعلى ذلك يكون الفن التجريدى هو نهاية ما وصل اليه السابقون .

ولكن كيف يكون الفن التجريدى نهاية ما وصل اليه السابقون ؟ قبل أن نتناول هذا الأمر أحب أن أتى بكلمة سادانتيانا كمتبت سنة ١٨٩٦ تمد إلهاماً للتجريد التشكيلي المعاصر ، فقد كتبت في كتابه القيم « الإحساس بالجمال » عن تهاويل قيم اللون فقال : تختلف قيم الألوان اختلافاً كبيراً وهي تشبه في ذلك القيم المختلفة التي للإحساسات الأخرى ، وكما أن الروائح الذكية والفاتحة والنفثات العالية أو المنخفضة أو المقامات الكبرى والصغرى تختلف فيما بينها بسبب اختلاف آثارها للحواس كذلك نجد أن اللون الأحمر يختلف عن اللون الأخضر والأخضر عن البنفسجي وهكذا من هذه الألوان عملية عصبية خاصة بها ، ومن ثم كان لكل منها قيمة خاصة وهذه الصفة العاطفية للألوان لها علاقة بالصفة العاطفية للإحساسات الأخرى ، ولهذا فلا ينبغي أن نعجب إذا كانت درجة الذبذبة العليا التي تنتج صوتاً حاداً في الأذن تنطوي إلى حد ما على نفس الإحساس الذي تولده درجة عليا من الذبذبة التي تنتج للعين لونا مثل اللون البنفسجي ، مع أن الكشيريين يعجزون عن إدراك هذه العلاقات فانه ليس من المستحيل أن ننحى الإحساس بها ، فن آثار اللون ما يلذ له الجميع ، في حين أن بعضها الآخر يولد إحساساً بالانشاز يكاد يشبه الانشاز في الموسيقى . وإذا طورنا حساسيتنا هذه على مجال أوسع فقد يؤدي ذلك إلى ظهور فن جديد مجرد يعالج الألوان كما يعالج فن الموسيقى الصوت .

وهكذا نجد أن ما نحقق على يد كاندنسكي سنة ١٩١٠ جرى قبل ذلك في الواعية الذهنية لجورج سادانتيانا .

وانرجع مرة أخرى إلى ما انتهى اليه الرأي في أن التجريد هو نهاية ما وصل اليه السابقون ، الدراسة التحليلية للفن تنتهي إلى أن روح الفن ما هي إلا شفافية الفنان وقدرته على إدراك حقائق الحياة خلال الجزئيات التي يتناولها بالتشكيل ، فالفن ربط ما هو جزئي ظاهر للعين باد للحواس وما هو مستتر خفي لا يدرك بالحواس .

وعلى مدى من يقين الفنان المتأمل بتخطي الحدود التي عينتها طبيعته كإنسان ، وبعد أن نحدد العلاقة بين الرؤية كإدراك وبين التصور التأملی ، وبعد أن نجتمع بين التشكيل الزماني للمكان نبقى رأينا بأن الصورة التجريدية عميل منبثق عن النفس الانسانية النقية متحقق في ذات الفنان . فالفنان ولا شك قد تسامى عن هذا الكون المادي ... وهل هو وحده محور التفكير والعقل هو مركز النقل بالنسبة للحياة نفسها ... الفنان هنا يضع السؤال موضع المحاولة التي حاولها الإنسان المفكر المتأمل وما زال يحاولها منذ بدأ يتلبس الحقيقة ، الفنان الآن بعيداً عن أزمة الإنسان المعاصر التي يجب أن تسمى « نكبة الإنسان المعاصر » ، قد اهتزت نفسه المفاهيم الجديدة بعدما كانت أنفاسه تتلاحق وراء المذاهب المتعددة من الانبعاثية الرومانتيكية والواقعية والانطباعية والحوشية والتعبيرية والتكعيبية والمادية والسريرية ، وهو بعد كل هذه المدارس ومؤثراتها وقف أمام أفق جديد بعد أن وجد نفسه قد تحولت عن التماسق الشكلي والانفالات العاطفية والنأثيرية البصرية والجروح النفسى والمثامات اللاشعورية ، لأن إدراكه الحسى الطبيعي لكل هذه المذاهب لم يعد له إنعكاس في نفسه الصادية إلى معالم جديدة وحقائق مختلفة ، أنه قد اطلع إلى نوع من الفن يقوم على التأمل والكشف لأنه إدراك أن المتأمل النقي يصير ذات عارفه خالصة متحررة ، وهكذا يصير الفن كشفاً تشكيباً وجذائياً قائماً على الحدس ، وهنا تقترب النفس الانسانية من قمتها لأنها بلا حدود ولا حدود تقترب من حافة عالم الحقيقة والجوهر . ومن ثم يقترب العقل الحدى من العقل التأملی ، ومثل هذا الاقتراب صعب البلوغ ولكنه ليس بالأمر المستحيل على المتصوفين .

الفنان عند ما سلك هذا الطريق فقد حدد لنفسه أصعب المسالك وأشق الدروب ، أنه كان على بيته من أن غيره قد اختط طرقاً اعتمد فيها على نظرة قاصرة لا ترى الحياة إلا أمراً واقعياً لا وجود له إلا داخل الظواهر المادية والتجربة الحسية فقط اعتماداً على العقل وقضاياها البهتة المرتبطة بإربطة الاستنباط ومن هذا القبيل ما حار به عالم النفس دى لاكروا من إثبات أن العمل الفنى ما هو إلا صنعة وعمل وإرادة وليس في زعمه ذوقاً صوفياً أو حساً ذاتياً أو الهاماً إلهياً ، أما الفنان النقي

المتأمل فهو بوصفه إنساناً أيضاً يدرك أنه لا يعيش بمعزل عن الحياة فهو لا يمكنه أن ينصرف إلى المادة والعقل وحدهما ويدع الروح والوجدان جانِباً ، فالأمر كما يدركه ليس صراعاً بين المادة والروح أو بين العقل والوجدان ولا لإنزال جانب منهما عن الجانب الآخر . وهو كإنسان يعرف أنه محدود السكينة من ناحية الزمان والمكان ومحدود السكينة من ناحية العقل والإدراك .

وهو كفنّان نقي متأمل يصوغ صورة الوجود الداخلى والخارجى من الزاوية الصوفية حيث أبقن بعد إيمان أنه عرف حقيقة الوجود فى ذاتها لأنها توجد فى ذاته هو ، وأن الفنّان والصوف يلتقيان عند أعماق النفس كما يلتقيان فى أعماق الوجود ذاته والتجربة الصوفية والتجربة التجريدية تنتهى إلى نوع خالص من المعرفة ، وعلى هذا نرى أن الفنّان والصوفى كلاهما يدرك ويعرف ويتذوق الوجود كاملاً وهو يعالج تجربة صوفية أو فنية ، فالفنّان والصوف صفاء ومشاهدة وهكذا تنتهى هذه التجربة الصوفية وهذه التجربة التشكيلية التجريدية إلى حقيقة واحدة وهى أن كل ذرة فى الوجود تلبس فى كل آن صورة جديدة تفيض هليها من مصدر الوجود ثم يظلمها فى اللحظة التالية إلى صورة أخرى ، وأن عالم الممكنات فى كل آن فى خلق جديد وأن كنهنا لا ندرك ذلك لصرعة ما يتعاقب على العالم من صور الفناء والبقاء ، كما إننا لا ندرك من جذره النار المتحركة فى حركة دائرية سريعة إلا دائرة متصلة من النار .

وبهذا نجد أن النسبية والدائمة تجمع بين الصوف والتجريد التشكيلي لأن الصورة التجريدية حالة رؤية وبصيرة وهى كشف عند الصوفى فى استغراق تأمله ، الفنّان يحقق فى حالة وجوده الرؤية ويترجمها إلى صورة تشكيلية ، والصوفى يستطيع أن يقول فى حالة وجوده وقد سئل عما يراه والمشاهد هناك لمن يستطيع أن يراه ، أو على حد قول دهرجسون ، : د أن الرؤية مشاركة وجدانية ننقل عن طريقها إلى جوهر الموضوع لكيما نندمج مع ما فى هذا الموضوع من إصالة فريدة أو بالتالى مع ما ليس فى الإمكان التعبير عنه .

وهذا الذى لا يمكن التعبير عنه يقول فيه العارف بالله سنّانى د رجعت عن كل

- ١٠٢ -

ما قلت لأنه ليس في اللفظ معنى ولا للمعنى لفظ ، .
 أما العارف بالله فريد الدين العطار فيقول ، أن في قلبي أسرار لا يفضي بها
 لأنه لا يستطيع الابانة عنها . . . أو لا يستحسن أن يفشيها للناس ، ويلتجئ من هذا
 ليقول ، عالمك وعالمى وراء الإدراك ، .

أما مولانا جلال الدين الرومى فيعقبه هذا الأمر بالهمس الصامت عند
 ما يقول :

لو تسنى من صديق لى فم قلت ، كالنأى حديقاً أكنتم
 وفى هذا المعنى يقول سلطان الماشقين الإمام العارف بالله عمر بن الفارض :
 صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا ونور ولا نار وروح ولا جسم
 ويلذهب به الوجد فيقول :

ولولا شذاها ما اعتديت لحانها ولولا سناها ما تصورها الوهم
 ولانرجع مرة أخرى إلى الامام الغزالي ليوضح لنا ما ليس في الامكان التعبير
 عنه أنه قرب العالم الخارجى من العالم الباطنى والمادى من الروحى والجزئى من
 السكلى فى قوله ، مثاله المرأة المجلوة إذ ليس لها لون فى نفسها بل لونها لون الحاضر
 فيها ، وكذلك الزجاجه فانها تحكى لون قرارها ولونها لون الحاضر فيها وليس لها فى
 نفسها صورة بل صورتها قبول الصورة ، ولونها هو هيئة الاستعداد لقبول الألوان
 ويعبر عن هذه الحقيقة قول الشاعر :

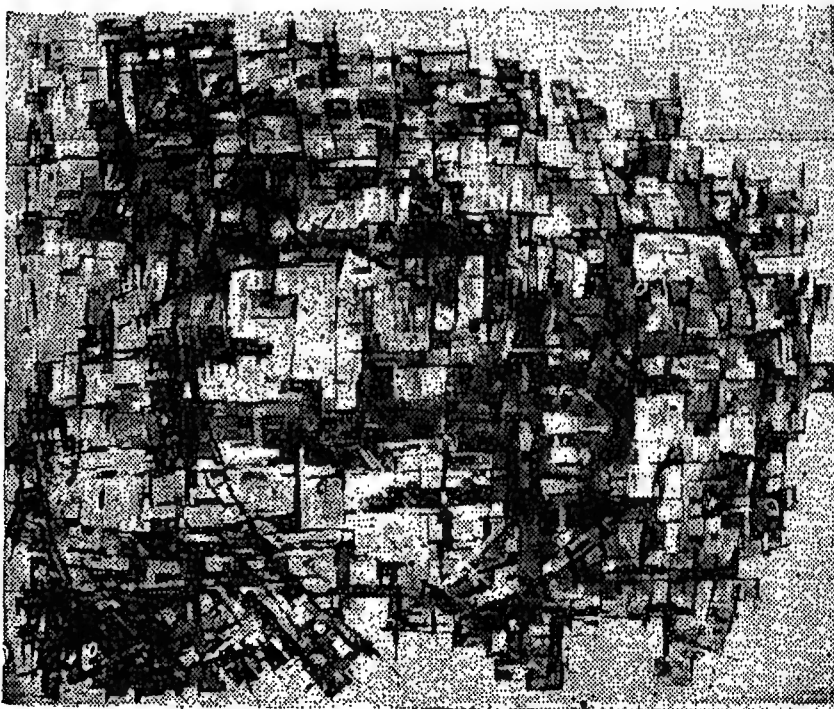
رقى الزجاج ورافقت الخمر وتشابهها تشاكل الأمر
 فكأنما نخمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر



(۱) نچسريد (محمود حلي)



(۷) مجریہ (محمود علی)



(۸) مجریہ (محمود علی)

شركة اسكندرية للتجفيف

إحدى شركات المؤسسة المصرية العامة للصناعات الغذائية

٢ شارع البورصة القديمة بالاسكندرية

تهدي منتجاتها إلى كل ربة بيت حتى توفر لها :
الراحة . نظافة مطبخها . الاقتصاد في التكاليف
اقتصاد الوقت

تعددت منتجاتها في السنوات الأخيرة وهي
تصدر لجميع أنحاء العالم .

بصل مجفف مجزأ ومسحوق - ثوم مجفف مسحوق
مسحوق طعمية مجففة - شوربة عدس مجففة
بطاطس مجففة - زبيب بناتي

مراكز التوزيع المحل :

تليفون ٣٤٩٩٠

٢ شارع البورصة القديمة - الاسكندرية

تليفون ٤٤٥٨٣

٢ شارع لبيب جبر - القاهرة

المجمعات الاستهلاكية

شركة النصر للملابس والمنسوجات الاسكندرية

من المصنع المتكامل
إلى المستهلك المتذوق

ملابس داخلية وخارجية
لل سيدات - للرجال - الأولاد
أقمشة جرسية صوف ١٠٠٪
سادة وجاكارد
أقمشة أورجاندين
الوان مبتكرة

معرض الشركة : ١٥ طريق الحرية - الاسكندرية

شركة النصر للملابس والمنسوجات الاسكندرية

من المصنع المتكامل
إلى المستهلك المتذوق

ملابس داخلية وخارجية

لل سيدات — للرجال — الأولاد

أقمشة جرسية صوف ١٠٠٪

سادة وجاكارد

أقمشة أورجاندين

الوان متمكرة

معرض الشركة : ١٥ طريق الحرية — الاسكندرية

شركة اسكندرية للتجفيف

إحدى شركات المؤسسة المصرية العامة للصناعات الغذائية

٢ شارع البورصة القديمة بالاسكندرية

تهدي منتجاتها إلى كل ربة بيت حتى توفر لها :
الراحة . نظافة مطبخها . الاقتصاد في التكاليف
اقتصاد الوقت

تعددت منتجاتها في السنوات الأخيرة وهي
تصدر لجميع أنحاء العالم .

بصل مجفف مجزأ ومسحوق - ثوم مجفف مسحوق
مسحوق طعمية مجففة - شوربة عدس مجففة
بطاطس مجففة - زبيب بناتي

مراكز التوزيع المحل :

| | |
|--------------|-------------------------------------|
| ٣٤٩٩٠ تليفون | ٢ شارع البورصة القديمة - الاسكندرية |
| ٤٤٥٨٣ تليفون | ٢ شارع لبيب جبر - القاهرة |
| | المجمعات الاستهلاكية |

- 7 - Morel, Edmund, Morocco in Diplomacy, London 1912.
- 8 - Palmer, Norman, & Howard Perkins, International Relations, 1945.
- 9 - Sobhy, H., The Moroccan Question, April 1906 - Feb. 1909. (Ph. D. Thesis, University of London).
- 10 - Sobhy, H, The Scramble For Morocco, 1884 - 1904.
(Arabic), Alex. 1965.
- (التنافس الاستعماري الأوروبي في المغرب - ١٨٨٤ - ١٩٠٤ دار المعارف -
الاسكندرية ١٩٦٥ .)
- 11 - Tardieu, André, Le Mystère d'Agadir. Paris 1912.
- 12 - Trevelyan, Grey of Fallodon, 1940.



References

Documentary Evidence

- 1 - British Foreign Office Records ;
F.O. 371/93 & 371/94 & 371/281 & 371/285 .
- 2 - German Foreign Ministry Archives (1867-1920)
Marokko 2 Bd. 11, Marokko 4 Bd. 131, Marokko
25/5 Bd. 1 & Marokko 25/5 Bd. 2.
- 3 - Documents Diplomatiques Français :
2ème. S, Tomes 2, 4, 9 (II) & 11
- 4 - Papers Relating To the Foreign Relations of the
U. S. A. 1906; The Status At large of the U. S. A.,
Vol. 34.

Other Sources

- 1 - Anderson Eugene Newton, The First Moroccan Crisis,
1904-1906., 1930.
- 2 - Ashmead.Bartlett, E., The Passing of the shereefian
Empire, London 1910.
- 3 - Bernard, Le Maroc, 1931.
- 4 - Buel, Raymond L., International Relations, 1929.
- 5 - Famchon, Yves, Le Maroc d'Algeciras à la souve-
rainete economique, Paris 1957.
- 6 - French Morocco, F. O. Handbooks. No. 108. June
1919.

| | |
|-------------------|--|
| Ogilvy, | British cavalry instructor in the Moorish army. |
| Pichon, | French Foreign Minister, 1906 1911. |
| Prinetti, | Italian Foreign Minister. |
| Radolin, | German Ambassador in Paris, 1900-1910. |
| Radowitz, | German Ambassador in Madrid, 1892-1908. |
| Regnault, | French Minister in Tangier. |
| Rosen, Dr., | German Minister in Tangier. |
| Rottenberg, | German engineer in the service of the Sultan. |
| Saint-Aulaire, | Secretary of the French Legation in Tangier. |
| Sternburg, Speck, | German Ambassador in Washington. |
| Tittoni, | Italian Foreign Minister. |
| Tschirschky, | German Foreign Minister. |
| Tschudi, | German officer, engineer in the service of the Sultan. |
| Vassel, | German Vice-Consul in Fez. |
| Visconti Venosta, | Italian Foreign Minister. |
| White, | Secretary of the British Legation in Tangier, |
| William II, | German Kaiser |



INDEX

- Barrington, Sir Eric, Assistant Secretary in the British F. O.
- Barrère, French Ambassador in Rome.
1897 - 1924.
- Bertie, Sir Francis, British Ambassador in Paris,
1905 - 1918.
- Brochet, French engineer of public works
in Tunis.
- Cambon, Paul French Ambassador in London,
1898 - 1920.
- Crowe, Eyre, Senior Clerk in the British F.O.
- Grey, Sir Edward, British Foreign Minister, 1905 1916.
- Guebbas, Si Mohammad, Moorish Minister of War.
- Huber, Lieutenant-Colonel,
German officer attached to Rosen's
mission to Fez.
- Jennisch, Councillor, attached to the German
Imperial Court.
- Klaas, Belgian engineer of bridges and
roads.
- Langwerth, First Secretary of the German
Legation in Tangier, 1905-1908
- Lascelles, British Ambassador in Berlin,
1895-1908.
- Lowther, Sir Gerard British Minister in Tangier.
- Maclean, Kaid, British instructor of the Sultan's
army.

Abbreviations

| | |
|-----------------|---|
| A. Amt. | Auswatriges Amt. |
| Art. | Aticle. |
| Bd., | Band. (Volume, followed by its number.) |
| D. D. F. | Documents Diplomatiques Français. |
| F., | Frame. (Followed by its number as in the microfilm reel.) |
| F. O., | Foreign Office. |
| G. A., | German Archives. |
| M. | Marokko. " Aktenzeichen " , followed by its number as referred to in the " Catalogue of Files and Microfilms of the German Foreign Ministry Archives 1867 - 1920." |
| S., | Serie. |
| T., | Tome. |
| Tel., | Télegram. |



to allow her special economic interest there, as that would be contrary to the Act of Algeciras, and she gave the French to understand this point of view. In the accord of 8 July 1905 between Germany and France, Germany recognized a special interest for France "à ce que l'ordre règne dans l'Empire cherifien." The conference of Algeciras realized a practical expression of that principle by giving to France a preponderant mandate in organizing the Maghreb police in eight open ports. But Germany could not cede to France any other point that would develop her preponderance or harm German interests in Morocco. ⁽¹⁾ It was thus clear that at all events a quarrel between French and German nationals in Morocco was an obstacle to an understanding between Paris and Berlin.

Yet French preponderance in the field had no match. Regardless of the fact that all enterprises could be realized by means of adjudication the French were the masters in the commissions of adjudication and they had a favourable majority in the Diplomatic corps at Tangier. Besides, this preponderance was increased by the appointment of a French engineer for public works ⁽²⁾ And it was ultimately determined by the guns of Casablanca which had a greater effect than all agreements to turn matters in Morocco to the advantage of the French.

1) *Aufzeichnung bet. Marokko, 15 June 1907, (G.A.), M. 4, Bd. 131, F, 165.*

2) *See: Saint-Aulaire to Pichon, 26 Aug. 1907, D D.F, 2ème. S.T. 11, No. 148.*

he American Government too backed the French view. he U. S. A. hoped that the agreements of Algeciras could lead to tranquillity and harmony in Morocco and she was astonished to see what she regarded as a simple question causing so much difficulty there. (1)

The French were actually eager to secure for themselves all major posts in the Moorish Empire. Their military intervention in Ujda (29 March 1907) and Casablanca (5 August 1907), however, turned the questions of the open door in their favour.

In their negotiations with Germany in 1907 to settle the quarrel over Morocco, (2) they suggested that the desired entente should include a declaration of disinterestedness on the part of Germany in Morocco. This, so they contemplated, could be effected by the immediate call, for reason of health, of Major Von Tschudi, and then the complete retreat of Germany from Morocco would be effected by the promise of the Germans not to present candidates for the posts of director of Moorish public services ... (3)

Germany, on the other hand, could not recognize French political or economic preponderance in Morocco

1) *Sternburg to A. Amt*, 21 & 26 March 1907, (*G. A.*) *M.* 25/5, Bd 1, F. 7 & 486.

2) See : *Sobhy, The Moroccan Question* (April 1906 - Feb. 1909) (*Attempts at Rapprochement, April-September 1907 pp. 360 - 383*).

3) See : *Saint-Aulaire to Pichon*, 23 July 1907, *D. D. F.* 2ème. S., T. 11, . 89.

Frenchman, a Spaniard, and a third of any other nationality. This, so Spain considered, would leave nothing to the Makhzen. ⁽¹⁾

For the same reason, the Italian Minister at Tangier was instructed to give his vote to the French candidate. ⁽²⁾ In fact, Italy had to work in harmony with France in Morocco. For Tittoni, the Italian Foreign Minister, it was an embarrassing position and he approached the German Government to instruct Rosen to support his Italian colleague. ⁽³⁾ Germany, on the other hand, refused the Spanish suggestion. Tschirschky, however, instructed Rosen and Radolin that Germany could accept a Spaniard as first adjoint only if the first engineer were not French. ⁽⁴⁾

In the engineer question, France was almost supported by all the Powers. The Austrian Government instructed their representative at Tangier to vote for a French engineer and a Spanish adjoint. This, in their opinion, was a guarantee for the economic equality for all nations which the Act of Algeiras had stipulated.⁵

1) Radowitz to A. Amt, 23 May 1907 (G. A.) M. 25/5, Bd. 2, F. 560 ; Rosen to A. Amt 13 May 1907, (G. A.) M. 25/5, Bd. 2, F. 548.

2) German Embassy (Rome), to A. Amt, 26 May 1907, (G. A.) M. 25/5 Bd. 2, F. 584.

3) Ibid.

4) Tschirschky to Rosen & Radolin, 15 May 1907, (G. A.) M. 25/5, Bd. 2, F. 549.

5) Langwerth to A. Amt, 31 May 1907. (G. A.), M. 25/5 Bd. 2, F. 616.

candidate. (1) But the French made urgent representations to the different Powers about the selection of a Belgian engineer, for they were eager by all means to put a stop to the idea of a neutral candidate, and a Belgian in particular. (2)

The French proposed to the Makhzen to have M. Brochët, engineer of public works in Tunis, appointed for the same job in Morocco by the Diplomatic Body. (3) Though England had her candidate for the job, the English engineer of Gibraltar Harbour, the F.O. could not decide to support this candidature before consulting the French Ambassador. (4) Hearing then from him about the French candidature, they instructed Lowther to co-operate with his French colleague at the proper time in support of the French candidate. (5)

For Spain, it was a matter of importance to secure the post of second engineer for a Spaniard. Spanish interests in Morocco necessitated such a nomination especially if the first post were to be given to a Frenchman. She repeatedly approached Germany in order to obtain the German vote in the selection. On the other hand, Spain suggested that three engineers would be appointed, a

1) *Tschirschky to Rome & Saint - Petersbourg, 7 March 1907, (G. A.) M 25/5, Bd I. F 394.*

2) *Lascelles to Grey, 29 March 1907, F. O. 371/285.*

3) *Rosen to A. Amt, 16 Feb. 1907, (G. A.) M. 25/5, Bd. I F. 388.*

4) *F. O. 371/93, no. 24831, 21 July 1906.*

5) *F. O. to Lowther, 26 July 1906, F. O. 371/93 - 86.*

that, in view of this post, the French Government had a candidate and hoped that the British Government would support them ⁽¹⁾. Rosen was aware that France, by securing a French candidate for that post, would gain an undue influence. So Germany endeavoured to prevent the selection of a Frenchman and preferred a neutral candidate ⁽²⁾. The French, on the other hand, were fully aware of the German attitude long before that decision, ⁽³⁾ but they hoped that with the support of England and that of the Portuguese, Russian, Spanish, and probably also of the Italian Legations, the French candidature would obtain a majority of votes ⁽⁴⁾.

So, when the Belgian Representative at Tangier wished to nominate a Belgian engineer, Rosen was quick to support the nomination. ⁽⁵⁾ The German Government tended to support the Belgian candidate, Klaas, engineer of bridges and roads, and Tschirschky instructed his ambassadors at Rome and at Saint - Petersburg to approach the Governments there : the Italian in order to back the German point of view, and the Russian to suggest to the French the preference of a neutral

1) F. O. to Lowther, 26 July, 1906, F. O. 371 / 93 - 86.

2) Tschirschky to Rosen & Radolin, 15 May 1907, (G. A.), M 25 / 5, Bd. 2, F. 549.

3) White to Grey, 3 Aug. 1906, F. O. 371 / 93 - 140.

4) Ibid.

5) Rosen to A. Amt, 24 Dec. 1906, (G. A.) M. 25/5, Bd. I, F. 375.

Body was concerned, as to the execution of the stipulations of the Act of Algéciras, Rosen found himself in a minority ⁽¹⁾, so Germany had to "get round" the Act of Algéciras, thus contradicting the oft repeated protestations and declarations of Bulow regarding the bona fides of the German Government in carrying out its stipulations.

After the death of Rottenberg, the German engineer in the service of the Sultan, in March 1906, Rosen suggested to his Government that Tottenberg should be replaced by a German engineer. The new candidate, so Rosen stated, ought not to be the same engineer that the Act of Algéciras stipulated, but he would work in harmony with him or he could at least control him. This would do much for the German economic interests in Morocco ⁽²⁾. At the same time Germany intimated to the French and Italian Ambassadors that she was not interested in the Engineer Question ⁽³⁾.

For France, it was very important that a French engineer should secure that post. On 23 July 1906, the French Ambassador informed the British Government

1) Lowther to Regnault, 22 Jan. 1907, F O. 371/281 - 19.

2) Rosen wrote, "... Andererseits ist es aber für unsere wirtschaftlichen Interessen von vielleicht ausschlaggebender Bedeutung, dass ein Deutscher Ingenieur dem Machsen in allen die öffentlichen Arbeiten betreffenden Fragen seiner Rat zu erteilen in der Lage ist. Ein solcher Ingenieur würde nicht identisch sein mit dem von der Konferenzakte in Aussicht genommenen Sachverständigen, konnte aber mit diesem zusammenwirken, oder ihn wenigstens kontrollieren..." See: Rosen to A. Amt, 11 July 1906 (G. A.), M. 2, Bd. II, F. 3887.

3) Rosen to A. Amt, 13 May 1907 (G. A.) M. 25/5, Bd. 2, F. 548.

Dr. Rosén, on the other hand, viewed the Tschudi question, of course, differently. He explained that when he was at the Court the Sultan had asked him whether the German Government could supply a successor to Rottenberg, an engineer who had been for some years in the Moroccan Government service and who had recently died, and Von Tschudi had been selected ⁽¹⁾. Dr. Rosen had also suggested that the Sultan should name another officer to assist Von Tschudi to which the Sultan had agreed. The German Government considered that the appointment of the two officers in question in no way whatever encroached on the letter or the spirit of the Act of Algéciras and considered that the Sultan had a perfect right to select any foreign officer for any purpose he wished ⁽²⁾.

Apart from that of Tschudi, another question provided the Powers with further ground for rivalry and quarrel. This was the question of the appointment of an engineer for public works in Morocco. Article 66 of the General Act of Algéciras stipulated that "all draft schemes, specifications . . . shall be prepared by a competent engineer appointed with the concurrence of the Diplomatic Body by the Shereefian Government . . ."

As a matter of fact, in all cases where the Diplomatic

to the spirit and to some extent to the letter of the Act of Algéciras. See Art. 66 of the Act, D. D. F., 2ème. S., T. 9 (2), No. 631, P. 840.

1) So Rosen told Lowther. See ; Lowther, to Grey, 16 Jan 1907, F.O. 371 / 281-14

2) *Ibid.*

expected arrival of Major Tschudi at Fez (1).

This of course aroused the suspicion of the French regardless of the fact that it was supposed that Tschudi was to serve other than purely military purposes (2). The German press explained that Major Von Tschudi and captain Wolff, his assistant, had entered the service of the Sultan as technical experts whose advice might be taken with regard to contracts and plans for public works, and that they had not been engaged as instructors for the Sultan's army (3). In the opinion of the Paris press the appointment of Major von Tschudi seemed to be contrary to the intentions of the Algeciras Conference. In the introduction of the necessary measures, so a French paper alleged, the Sultan should deal with Europe as a whole and not with the individual Powers (4). Regnault, the French Minister at Tangier, was of the opinion that, in the question of Tschudi the demand of the "open door" for which Germany had made such a stand at Algeciras had been completely forgotten (5). He was afraid that Tschudi would be allowed to exercise his influence in the matter of the "Reglement" for tenders for public works, the preparations of whose plans were to be made at Fez (6).

1) Lowther to Grey, 22 Jan, 1907, F. O. 371/281 - 19.

2) See, Minutes of Mr. Crowe to Tel. 81, F. O. 371 / 94. (28 Nov.)

3) Norddeutsche, 14 Jan. 1907, Bertie to Grey, 16 Jan. 1907, F. O. 371 / 281 - 27.

4) Ibid.

5) Lowther to Grey, 22 Jan. 1907, F. O. 371 / 281 - 19.

6) According to this accusation the appointment of Tschudi would be contrary —

dangerous opponent of any French energetic policy in Morocco.

Rosen's visit to Fez, which created a very favourable impression in the Court ⁽¹⁾, showed that the Germans would take the place that the English had formerly held as confidential advisers to the Sultan. Recieved by the Sultan in a private audience, Rosen delivered the presents that he had brought to the Sultan, amongst which was a small wireless apparatus. The German Minister, having the great advantage of being able to converse in Arabic, created a very favourable impression upon the Sultan and Visirs and it was believed that any advice he might tender would doubtless have much weight both with the Sultan and with the Court officially ⁽²⁾. During these negotiations Rosen could easily secure the Sultan's consent to form an engineer corps managed by Tschudi who was to return to Fez to maintain his function ⁽³⁾. The news of Tschudi's appointment for duty at Fez was further confirmed by Lascelles from Berlin ⁽⁴⁾. The Sultan then directed the Minister of War to send 300 soldiers from Tangier to form an engineer corps and it was significant that this order should have been given just at the moment of the

1) *Rosen had private interviews with the Sultan who praised him and appreciated " his great liking for the Muhammedans and their religion of which he showed a good knowledge. " See : White to Crowe, 27 Oct. 1906, F. O. 371 / 94 Private letter.*

2) *So White believed. See : White to Grey, 13 Oct. 1906, F. O. 371 / 93 - 194.*

3) *So Maclean told White. See : White to Grey, 28 Nov. 1906, F. O. 371 / 94 — Tel. 81.*

4) *Lascelles to Grey, 21 Dec. 1906, F. O. 371 / 94 - 403.*

After his consent to the Act, Abdul.Aziz expressed his wish to see the German Minister as soon as possible ⁽¹⁾. The journey was made ostensibly with the sole object of presenting his credentials ⁽²⁾ but Germany, by the quick appearance of her Representative at the Shereefian Court, aimed at convincing the Sultan that she would not abandon him and at persuading him to proceed firmly, adopting the Moroccan policy agreed upon between them ⁽³⁾. After the Kaiser had been consulted about the presents to be given to the Sultan, ⁽⁴⁾ Rosen left Tangier for Fez on 22 September. The composition of the mission was significant, as it included Lieutenant-Colonel Hueber, who had visited Algeria some two years earlier and had made a special study of the whole frontiers with Morocco, and Captain Tschudi, the wireless telegraph and ballooning expert ⁽⁵⁾. Dr. Rosen, the German Minister at Tangier, possessed the talents that rendered his job easy and fairly successful. Having spent his boyhood in Palestine he had learnt Arabic as his mother tongue. Besides, his manner was one that appealed to the Sultan and the Moors. Although he always endeavoured to give the impression that his attitude was extremely moderate and conciliatory, he proved to be a

1) *Vassel to Rosen*, 29 June 1906, (G.A.), M. 2, Bd. 11, F. 3889; *Rosen to Tschirschky*, 11 July 1906, *Ibid*, F 3887.

2) *White to Grey*, 25 Aug, 1906, F O. 371/93. Tel. 36.

3) *Tschirschky to William*, 7 Aug. 1906, (G. A) M. 2, Bd 11 F. 3904.

4) *See : Tschirschky to Jennisch*, 22 Aug. 1906, *Ibid*. F. 3932.

5) *White to Grey*, 22 Sept. 1906, F. O. 371 / 93 - 174 ; *White to Grey*, 28 Nov. 1906 F. O. 371 / 94 - Tel. 81.

German instructors for his army. This happened e.g. in April 1905. (1) He also told Dr. Vassel, the German Vice-Consul at Fez, that the police reform for the coast cities stipulated by the Act of Algeciras was not enough, and expressed the wish that reform might be also introduced to the towns of the interior and suggested to Vassel that he required German officers for the purpose. (2) The German Government, on the other hand, were reluctant to respond to the Sultan's wishes (3) or to be involved in such difficulties that would allow them to appear injuring the Algeciras resolutions.

Although Germany joined the Powers in enforcing the Act of Algeciras upon the Sultan regardless of the fact that his delegates to the Conference refused to sign it and that he was resolved not to consent to it, the Sultan still viewed the Germans as supporters and advisers. This was no doubt the inevitable consequence of the Kaiser's action after the Anglo-French Agreements of 1904. The support of Germany, open and concealed, for the Makhzen, in the reign of Abdul-Aziz or Abdul Hafeed, was an important reason for the failure of the French policy in Morocco. (4) Whether in 1905 or afterwards this support was always the winning card in the Sultan's hands against the French.

1) See. Vassel to Rosen, 29 June 1906, (*German Archives*), M. 2, Bd 11 F. 3889

2) *Ibid.*

3) Rosen to A. Amt. 11 July, 1906 (*Aufzeichnung für Seine Exzellenz den Herrn Staatssekretar*), M. 2, Bd. 11, F. 3887

4) Tardieu, *Le Mystère d'Agadir*, P. 7

Government wished also to reserve the right to put a French officer in the Englishman's place later on. (1)

The Sultan, on the other hand, seemed reluctant to employ an English officer. On hearing this, the British Government intended to get Maclean, the British instructor of the Sultan's army and the Sultan's friend through whom the British once possessed a predominant influence in Morocco, to take any steps he could to persuade the Sultan to take an English officer, though it was not a matter that the English could press officially. (2) It was, however, in the interest of the French to do so. Nevertheless, Kaid Maclean was told by the Sultan that he would apply for an instructor as soon as he required one, but he did not need one at the time. (3).

As to the German Government, they considered that the Sultan had a perfect right to select any foreign officer for any purpose he wished. Yet they did not raise any question of a German cavalry instructor being selected to fill the place of Major Ogilvy. (4) They contemplated to have a solid footing in the Court by other means. As a matter of fact, the Sultan of Morocco had expressed his wish several times to the Germans to have

1) Minutes by E. Barrington on 9 Aug 1906, F. O. 371/93. 27437.

2) Grey stated " We should do what we can and I do not see what else we can do " See minutes to White's private letter to Crowe of 3 Aug. 1906. (received at the F. O. on 10 Sep.) F O. 371/93. 36770 .

3) White to Grey, 29 Sep. 1906 F. O. 371/93.32875-47 (Tel)

4, So declared Rosen to Lowther. See : Lowther to Grey, 16 Jan. 1907, F. O. 371/281. 2650-14

French officer but he might try and appoint a German if he saw hesitation from the part of the English. (1) White, the British representative at Tangier, even feared that in the case of the French supporting the candidature of an English officer, this would do more harm than good. It was also feared that the Sultan, on hearing the British objections to a loan for him, would declare that an English officer was not required. (2)

Although the French Chargé d'Affaires at Tangier shared Lowther his view, the French were preparing a candidate of their own (3), and the British Minister at Tangier was subsequently instructed by Grey, the British Foreign Minister, to support the French candidate. (4) But in order to avoid the risk of a German officer being appointed by the Sultan, the French Government suddenly changed their mind on the question, (5) and thus left selection to the British Government. Cambon, the French Ambassador in London, notifying the British Government that his Government had withdrawn their intention to propose a French officer, expressed the hope that it should be made clear to the Sultan that France and England were entirely agreed on the matter. (6) The French

1) Lowther to Grey, 3 July 1906, F. O. 371/93.26083- 27 (Tel.)

2) White to Crowe, 3 Aug. 1906, F. O. 371/93. 30770. Private letter.

3) See minutes of Grey, F. O. 371/93. (Tel. 27.)

4) Grey to White, 3 Aug. 1906, F. O. 371/93, 26625 - Tel. 11.

5) White to Grey, 4 Aug. 1906, F. O. 371/93 26674 - Tel. 29.

6) Instructions in this sense were sent to White. See : Grey to White, 13 Aug. 1906, F. O. 371/93 27437. Tel. 12.

are the questions of the major posts of the Empire, public works, monopolies and concessions. And, amongst the posts affair, which we now intend to deal with, the questions of Ogilvy, Tschudi and the public works Engineer are the most significant.

After almost three and a half years in the employment of the Sultan, Major Ogilvy, the British cavalry instructor in the Moorish army, died of typhoid fever. The very brief terms of the note of regret which Guebhas, the Moorish Minister of War, sent to Lowther, the British Minister at Tangier, did not, however, fully express the Minister's appreciation of the services of the Major. (1) The desire of Guebhas, not to commit himself too far, revealed the wishes of the Makhzen (2) regarding Major Ogilvy's successor. It was clear that they had not yet decided to appoint an English instructor. The Makhzen's attitude towards the English was now chiefly due to the "Entente Cordiale". According to the stipulations of this Anglo-French agreement of 1904 the English had to retire in Morocco in favour of the French. The "Entente" thus alienated the Sultan from both the French and the English (3) to the benefit of the Germans in Morocco.

Lowther, the British Minister at Tangier, believed that the Sultan would object to the appointment of a

1) Lowther to Grey, 19 July 1906, F. O. 371/93, 25908-132.

2) The Moorish Government.

3) See : Sobhy, *op. cit.* pp 242-245.

provided various fields for that conflict. Efforts have been made by interested scholars to reveal particulars of the conflict, but a complete study covering the field has not been accomplished. In 1929 Anderson's study on "The First Moroccan Crisis, 1904 - 1906" appeared. Although the work is an excellent introduction to the subject yet the absence at that time of adequate French, British and German documents makes it merely a basis for special further study. The same view could be applied to Ima Christina's good work "The Agadir Crisis" which was published in 1940, surveying the incidents involved in the crisis and analysing the motives of the various actors. The author also believed that the publication of all French documents relating to the crisis would probably clarify some details, but no startling disclosures would result. But in fact the recent publication of this perfect collection of French published documents "Documents Diplomatiques Français" ⁽¹⁾, the filming of the pre-1920 files of the German Archives from 1952 and the recent releasing of the British F. O. files covering the period paved the way for further eminent and startling facts. In my study on the "Moroccan Question, 1906 - 1909" accomplished in 1962 ⁽²⁾ the questions of the State Bank of Morocco, the police mandate and mining concessions are dealt with. Other less important yet significant aspects of conflict are still worthy of attention. Among those

1) Vol. 4, 2nd. Series of the collection ex was published in 1950.

2) Ph D. Thesis, University of London.

controlled and run by the Powers (1) and every aspect of public life was to be submitted to the censorship of the Diplomatic Corps at Tangier. (2) But in effect the Act made the action of France the dominant factor. (3) The Algeciras Agreements, however, misled those who were unacquainted with France's secret agreements with Italy in 1900 and 1902 (4) and with Great Britain and Spain in 1904 and 1905. (5)

Yet for the French the Act of Algeciras, hindered by the persisting opposition of Germany could not be sufficient to the requirement of what the French called "the Moroccan obligations of France" (6). Though the Act of 1906 represented "le moindre mal", sacrificed nothing, reserved everything and gave France the maximum that she could reach, yet the French then realized that it could not respond to the demands of the situation. (7)

So the conflict of the Powers in Morocco, mainly between France and Germany, had to go on, and the application of the Act and the explanation of its articles

1) See Chapter 3 of the Act.

2) See Arts. 108, 110, 114, 117 and 120, of the Act.

3) French Morocco, F. O. Handbooks, No. 108, p. 25.

4) Franco-Italian accord concerning Tripoli and Morocco in the form of letters exchanged between Barrère and Visconti-Venosta on 14-16 Dec. 1900, and between Prinetti and Barrère on 10-11 July, 1902, See : D. D. F., 2ème. S., T. 2, No. 329 & Annexes 1, 2, 3 & 4 (Secret) ; Norman Palmer, and Howard Perkins, International Relations, p. 436.

5) See : D. D. F., 2ème S., T. 4, pp. 533 — 543; Ibid T. 5. p. 361 ; Sobhy, H., The Scramble for Morocco, pp 168 — 247. "Arabic" .

6) Tardieu, André, Le Mystère d'Agadir, Paris 1912, p. 5.

7) Ibid. p. 6.

perity" in the Shereefian Empire. (1)

All the decisions arrived at conducted directly or indirectly to the aim of providing that all nationalities should have equal opportunities and should be on the same footing. The Act secured ample guarantees for the maintenance of the open door, not only in respect of economic liberty but also in regard to everything affecting commercial privileges and industrial enterprise in the Shereefian Empire.

Yet for the conflicting Powers, the Algeciras agreements provided only a temporary settlement and the postponement of a final solution, (2) though the reforms suggested stemmed from the exigencies of international relations and the interests of the Powers rather than those of Morocco. (3) In form, the act of Algeciras was explicitly intended to internationalize the solution of the Moroccan question. Some considered the Act as an international protection over Morocco. (4) France and Spain acquired a mandate to organize a police force in the ports, (5) a Moroccan state Bank was to be established,

1) See : "Acte générale de la Conférence internationale d'Algeciras", *Doc. Dip. Fr.*, 2ème S., T. 9 (II), No 631. A translation of the Act may be found in other sources. See : Papers Relating to the Foreign Relations of The U. S. A., 1906, (2) , p. 1459 ; The Status At Large of The U. S. A. , Vol. 34, p 2905 ; Morel, Morocco In Diplomacy, p. 252,

2) Trevelyan, Grey of Fallodon , 1940, p. 225 ; Bernard, Le Maroc, p. 334.

3) Anderson, the First Moroccan Crisis, p. 394 ; Ashmead-Bartlett, The passing of the Shereefian Empire, p 14 ; Fumchon, Le Maroc d'Algeciras A la Souveraineté Economique, p. 425.

4) Buel, Raymond, International Relations, p. 473.

5) See Art. 3 of the Act.

The Open Door in Morocco After Algeciras

Some Aspects of The Scramble for Influence And Interests

by Hassan Sobhy

The Conference of Algeciras was the outcome of a Franco-German political struggle in Morocco to which the Anglo-French "Entente" of April 4, 1904 had given rise : France trying to obtain predominant influence in the country, and Germany endeavouring to prevent it. A conference was therefore called ostensibly for the purpose of preparing a series of "reforms" for Morocco to be recommended to the Sultan ⁽¹⁾, or more precisely, to be enforced upon him.

On 7 April, 1906, a general act was arrived at in Algeciras, a small town in southern Spain which the historical gathering made famous. The act was signed by the delegates of the Powers participating in the Conference : Austria-Hungary, Belgium, France, Germany, Great Britain, Italy, the Netherlands, Portugal, Russia, Spain, Sweden, and the U. S. A. The act recognized the sovereignty and independence of the Sultan of Morocco, the integrity of his lands and the economic liberty in the country, and it regulated the relations between Morocco and the interested Powers with regard to the introduction of reforms designed to promote "order, peace and pros-

1) Lowther to Grey, 8 Feb. 1907, F.O. 371/281, (General, Report on Morocco.)

PUBLICATIONS OF
THE ARCHEOLOGICAL SOCIETY OF ALEXANDRIA

ARCHAEOLOGICAL & HISTORICAL STUDIES

3



Contents :

The Open Door in Morocco after Algociras.

by Dr. Hassan Sobhy

1969

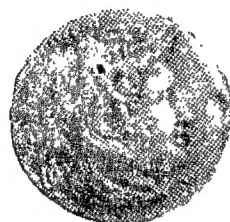
رقم الإبداع بدار المكتب ٢٢٥٧ لسنة ١٩٦٩

*Publications of the Archaeological Society of Alexandria
may be obtained from its office : 6, Rue Mahmoud Moukhtar
Alexandria - Tel. 20650*

PUBLICATIONS OF
THE ARCHEOLOGICAL SOCIETY OF ALEXANDRIA

ARCHAEOLOGICAL & HISTORICAL STUDIES

3



1969